OPEN ACCESS
Journal of Islamic & Religious Studies
ISSN (Online): 2519-7118
ISSN (Print): 2518-5330
jirs.uoh.edu.pk/jirs

JIRS, Vol.:6, Issue: 1, Jan – June 2021,
DOI: 10.36476/JIRS.6:1.06.2021.05, PP: 103 - 134

فلسفة الدعاء عند الصوفية ومعالجتُها لأسئلة الحائرين

The Philosophy of Supplication in Sufism and Answers of Misconception

Ahmad Idrees Al-Ta'ān,
Associate Professor, Faculty of Shariah,
Damascuss University

Version of Record Online/Print: 25-06-2021
Accepted: 31-05-2021
Received: 31-01-2021

Abstract

This research deals with the question of supplication among the people of Sufism in terms of the truth of supplication, its importance, how Sufis understand it, and the relationship of supplication to faith in general. It is through their own philosophy of understanding supplication that a person can find comfortable answers to the doubts raised by skeptics about supplication in terms of its answer, the benefit of it, and how does the appointed person deal with the supplication in its different situations? And what is his position - as a servant of God Almighty - regarding his seeing the supplication answered sooner, or his failure to see that? Sufism sparks in their philosophy through a fundamental issue that is the basis for all other issues, which are the reality of the human being, his identity, the essence of this identity, the reality of this worldly life, its purpose, and the position of man in it. If a person understands this correctly, then all the other issues become branches that are easy to understand for the mind, and the heart remains, which always needs to be monitored, and addressed in order not to lose sight of the greater purpose and the main significance of his existence, so he gets lost in the labyrinths of the dusty paths. Thus, Sufis believe that dealing with any suspicions related to faith and supplication is dealt with in two ways: the first is the understanding of God Almighty who persuades the mind and relaxes it, and the second: the work that polishes the heart and soul with emotional knowledge, saves it from distraction and negligence, and always draws it to His Creator and Creator Almighty.

Keywords: *supplication, request, answer, Sufism, philosophy, slavery*

CC BY

مقدمة

الحمد لله الذي أكرمنا بنور الهداية، وأخرجنا من ظلمات الغواية، وجعل لنا في كل شيءٍ آية، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأمّيّ وعلى آله وصحبه صلاة وسلاماً دائمين بلا نهاية وبعد:

فالدعاء مظهر من مظاهر العبادة لله عز وجل في كل الأديان، وهو تعبير عن خضوع الإنسان واستسلامه المطلق لخالقه عز وجل، كما أنه تعبير عن العجز والضعف في مواجهة معترك الحياة، فبه يستمد الإنسان قوته من ربه عز وجل، ويطلب منه العون والقوة، وهذا معنى قولنا: لا حول ولا قوة إلا بالله، التي وصفها النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنها كنز من كنوز الجنة.[1]

وقد تَفنَّنَ الإسلامُ في صِيَغِ الدعاء والتضرُّع واللجوء إلى الله عز وجل في مختلف الأشكال والمواقف والأحوال، فلكل حال مقال، ولكل زمان دعاء، ولكل موقف أو حركة أو سكنة ذكر أو دعاء، فهناك أدعية في الصباح والمساء، وأدعية في السجود والركوع، وأدعية في حال الخوف أو الأمن، وأدعية في حال الشدة أو الرخاء، وأدعية في حال القوة والضعف، وأدعية في حال المشي أو الركوب، وأدعية في حال السفر والوصول، وأدعية في حال الخروج أو الدخول، وأدعية في حال المرض أو العافية، وأدعية في حال الرضا أو الغضب وهكذا .. وما ذلك إلا لأهمية الدعاء في حياة الإنسان، ليبقى القلب معلَّقاً بخالقه، لأن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها تلاوة القرآن، وذكر الله تعالى،[2] وليبقى اللسان رطبًا بذكر الله عز وجل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حين أوصى أحد أصحابه بقوله: لا يزال لسانك رطباً بذكر الله.[3]

وقد أردت في هذه البحث أن أركز الحديث في التجربة الصوفية لفهم الدعاء، فما هو الدعاء عند أهل التصوف؟ وكيف يفهمونه وكيف يمارسونه؟ وما هي الجذور التي ينطلقون منها لهذا الفهم ولهذه الممارسة؟ وما هي أسبابه؟ وما هي آثاره؟ وما هي نتائجه التي يطمحون إليها؟ وكيف يمكن أن نوظف هذه التجربة في الرد على الإشكالات والشبهات التي يثيرها المشككون حول الدعاء ؟

هذه هي أسئلة البحث التي سيسعى للإجابة عليها، وقد سلكت في هذا البحث منهجاً استقرائياً وصفياً استنتاجياً، حاولت من خلال ذلك أن أوجه الأنظار إلى شكل جديد من أشكال الرد على الشبهات لا يقتصر فقط على الرد العقلي والجدلي السجالي الذي نجده في المنهج الكلامي والفلسفي المحض، بل ينتهج منهجاً جديداً قائماً على الممارسة الروحية والعملية المستندة إلى طبيعة الإنسان وعلاقته مع الخالق والكون والحياة، إنها تجربة ذوقية تقوم على التجربة المباشرة، والمعايشة الوجودية.

ولم أجد في الدراسات السابقة بحثاً يتناول فلسفة الدعاء عند الصوفية بشكل مستقل، ويعرض لذلك في سياق الرد على الشبهات والإشكالات التي يطرحها المتشككون في الإيمان والدعاء، وقد وجدت ما يلي :

- البعد الصوفي والفلسفي للدعاء بين الإمامين أبي حامد الغزالي وصدر الدين القونوي، دراسة تحليلية مقارنة، للباحث: أحمد إسماعيل السيد أحمد منصور، رسالة ماجستير – جامعة المنصورة، كلية الآداب، قسم الفلسفة، مصر، 2019 م . وهذه دراسة اقتصرت على الشخصيتين المذكورتين في العنوان وهما شخصيتان لم أعرض لها في بحثي هذا .
- الدعاء في النثر الصوفي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، دراسة فنية، للباحث محمد مهدي مشكور، رسالة

ماجستير، جامعة تكريت، كلية التربية، قسم اللغة العربية، 2012م، العراق. وهذه الرسالة تناولت الدعاء عند الصوفية في الجانب اللغوي والفني .

- بلاغة الدعاء في نماذج من الخطاب الصوفي، رسالة دكتوراه للباحث عبد المؤمن زيطان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب، 2018م. وهذه الرسالة اعتنت بالجوانب البلاغية والتربوية في الأدبيات الصوفية.

وقد هَدَفَ البحث إلى تسليط الضوء على أهمية التجربة الصوفية كتجربة عملية ذوقية في معالجة الشكوك التي تعترض الإيمان بالدعاء وأهميته، وعلاقة ذلك بالإيمان بالله عز وجل، بعيداً عن غمار الجدل المحض والفلسفة المجردة .

وقد جاءت خطة البحث في مقدمة ومدخل تمهيدي وخمسة مباحث وخاتمة، كما يلي :

المدخل التمهيدي: الإنسان والكون بين العجز والشك، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإنسان العاجز الضعيف. **المطلب الثاني**: الإنسان الشاك المتمرد. **المطلب الثالث**: سبيل الحقيقة.

المبحث الأول : معنى الدعاء بين الذلة والاضطرار والعز والاختيار، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: معنى الدعاء. **المطلب الثاني**: الإنسان بين الاضطرار والافتقار. **المطلب الثالث**: الإنسان بين الأمانة والعبودية. **المطلب الرابع**: الروح السامية والمطالب العالية.

المبحث الثاني: فلسفة المنع والعطاء عند الصوفية، وفيه ثمانية مطالب :

المطلب الأول: ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك. **المطلب الثاني**: أساس الراحة الفهم. **المطلب الثالث**: إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه. **المطلب الرابع**: الرضا في المنع والعطاء والبلاء والرخاء. **المطلب الخامس**: الخوف والرجاء بين المنع والعطاء. **المطلب السادس**: العطاء من الخلق حرمان ومن الله عز وجل إحسان. **المطلب السابع**: يُشهدك الباري برَّه في عطائه وقهره في منعه. **المطلب الثامن**: الطفولة والرجولة بين المنع والعطاء.

المبحث الثالث: فلسفة الطلب عند الصوفية، وفيه ثمانية مطالب :

المطلب الأول: متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك. **المطلب الثاني**: خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك. **المطلب الثالث**: الأدب قبل الطلب. **المطلب الرابع**: حين يكون الطلب عبودية وحين يكون دنيوية. **المطلب الخامس**: ما تطلبه بنفسك وما تطلبه بربك. **المطلب السادس**: علامات الطلب بالله والطلب بالنفس. **المطلب السابع**: الكريم لا تتخطاه الآمال .

المبحث الرابع: فلسفة السكوت عند الصوفية، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: هل الأفضل الدعاء أم السكوت؟ **المطلب الثاني**: ربما دلهم الأدب على ترك الطلب. **المطلب الثالث**: لا توجه قلبك إلا إليه.

المبحث الخامس: مفهوم الإجابة عند الصوفية، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الإجابة والمشيئة. **المطلب الثاني**: لا تيأس ولا تعجل. **المطلب الثالث**: عالج الشك باليقين. **المطلب الرابع**: العطاءات المُعجَّلة التي لا يشعر بها العبد. **المطلب الخامس**: دعاء الحال أفضل من دعاء المقال.

الخاتمة والتوصيات

واللهَ عز وجل أسأل أن يهدي قلبي، ويُبصِّر عقلي، ويسدد قلمي، ويجعل كل كلمة أو فكرة أو خاطرة أو حركة أو سكنة خالصة لوجهه الكريم إنه سميع قريب مجيب كريم رحيم .

مدخل تمهيدي : الإنسان والكون بين العجز والشك

المطلب الأول: الإنسان العاجز الضعيف

إن الإنسان بطبيعة الحال ضعيف عاجز أمام الحوادث في هذا الكون العريض، فهو عاجز أمام الأمراض، عاجز أمام الكوارث، عاجز أمام الموت، ويظهر ضعفه مهما كان متجبراً بشكل جَلِيٍّ حين يقع في ضيق وَكَرْبٍ فيجد نفسَه مستسلماً لخالقه، ومرتمياً بين يديه متضرعاً متذللاً خاشعاً رافعاً يديه إلى السماء، راجياً رحمة ربه، مستجيراً من عذابه، وقد وصف الباري عز وجل حالة الإنسان هذه في آيات عديدة؛ لِيُذكِّرَه بهويته التي يغفل عنها الإنسان في حالة رخائه وقوته وعافيته، إنها عبوديته لله عز وجل التي لا يمكنه الانفكاكَ عنها اختياراً أو اضطراراً، قال الله عز وجل: "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"[يونس : 22 -23]. "لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ"[العنكبوت: 65]

وقال عز وجل : "وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ" [لقمان: 32].

المطلب الثاني: الإنسان الشاك المتمرد

إلا أن الإنسان سرعان ما ينسى، وخصوصاً حين يكون في حال من القوة والغنى،"كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى" [العلق : 6-7]، فيتعالى ويتكبر ويطغى ويتجبر، ويظن أنه لن يرجع إلى ربه، وأن الحال سيدوم له كما يريد ويشتهي، حتى تُفاجئَه المنايا والخطوبُ، وترمي به في الحفرة التي لا مفرَّ منها.

وقد ألحد بعض الناس لأنه بحسب ظنه لا يرى أثراً للدعاء في الحياة، يقول أحدهم " أإلى الله المشتكى؟! والله لا يطعم جائعاً، ولا يرحم مظلوماً، ولا يشفي مريضاً ... إن الصالحين أحق بالإجابة منا، ومع ذلك فهو لا يستجيب لهم، فما قولك بالطالحين؟ هذا إن صح وجوده؟! فكيف إذا كان عدم وجوده حقاً مبيناً؟"[4] وقد أعلن المؤلف في كتابه هذا رحلته من الإيمان إلى الشك، معارضاً كتاباً للدكتور مصطفى محمود بعنوان"رحلتي من الشك إلى الإيمان".[5]

> "وكم تجددت الدموعُ، وكم تجدد الدعاءُ والابتهالُ، بل لقد لاحظت بعد هذه الأدعية والابتهالات ويا لهول ما لاحظت أن الله يستجيب بالمقلوب، فلعله سبحانه لا يفهم العربية جيداً "[6]

ويقول عبد الله القصيمي:

> "لقد كانوا الناس يهتفون ويضرعون ويبكون متقدمين بكل طلباتهم واحتياجاتهم ومناشداتهم وأحزانهم وآمالهم واقتناعهم وحبهم وخوفهم وصدقهم إلى الإله بكل اللغات، بأساليب ومَذَلاَّت ترق لها الصخور، وترق لها الأبالسة، وتخجل منها ولكنه سبحانه وتعالى لم يكن يستجيب لأحد، أو يرق لأحد، أو يخجل لأحد، أو يخجل من أحد، لقد كانت جميع دعوات البشر ومطالبهم

الضارعة الباكية تسقط تحت قدميه ... لقد كانت جميع تضرعات البشر ودعواتهم ومطالباتهم تموت تحت قدمي الإله وصمته دون رثاء"[7]

إنهم يتعاملون مع الباري عز وجل كما يتعاملون مع البشر، على أنه يتأثر بالمواقف الآنية، وأنه سبحانه تستفزه أفعال وجرائم البشر، فيريدون منه سبحانه أن يتأثر كتأثرهم، ويغضب كغضبهم، ويُستفزَّ كما يُستفزُّون، ويحزن كما يحزنون، وينتقم كما ينتقمون، لو كان الأمر كذلك لما خلق الدنيا والآخرة، ولما خلق الشر في العالم، ولما خلق الابتلاء والنار والعذاب والآلام، ولما خلق المجرمين والشياطين والفراعنة والمتكبرين! لكنه سبحانه أراد أن تكونَ هذه الدارُ دارَ امتحانٍ وابتلاء، والآخرةُ هي دار الجزاء، لكن الناس لعجلتهم يريدون منه أن يستعجل، فيعذبَ المجرمينَ وينصف المظلومينَ، وقد نسوا أن الله سبحانه ليس في زمان، ولا مكان، وأن الزمان بالنسبة لنا نحن البشر، أما بالنسبة له سبحانه فلا زمان، ولا مستقبل، ولا ماضي، ولا حاضر وجوده سبحانه كمال مطلق، ويكفينا نحن البشر أدلة وجوده المبثوثة في الكون، وأدلة عظمته، وحكمته، وجبروته، ورحمته، لتدلنا على عدله المطلق في دار الجزاء، التي سنصير إليها أجمعين.

مثال ذلك: ما يحصل في سوريا من جرائم يشيب لها الولدان من قتل وتدمير وإحراق للرجال والنساء والأطفال وتدميرٍ للبيوت فوق رؤوس أهلها، وتعذيبٍ في المعتقلات للأحرار بكل أصناف التعذيب بشكل لا يتخيله بشر وأمثال ذلك في التاريخ المعاصر والقديم، نحن البشر نتألم لذلك، وتحترق قلوبنا من الحزن ونتساءل علناً أو سراً أين الله؟ لمَ لمْ ينتقم سبحانه وتعالى؟

لكن لو تأملنا قليلاً لعَلِمْنا أن الله عز وجل خلق القتلة والمجرمين منذ الأزل، وهو يعلم هذه الجرائم منذ الأزل، يعني ليس علمه بالجريمة حادثاً كعلمنا، فيتأثر بها كما نحن تأثراً حادثاً عرضياً، هو يرى الجريمة قبل أن نكون، وقبل أن يكون المجرم وتكون الضحية، ولكنه سبحانه جعل ذلك ابتلاء لعباده، واختباراً لهم لحكمة يعلمها سبحانه .

فلا يصح أن نقيس الباري سبحانه وتعالى على أنفسنا، وعواطفنا، ومشاعرنا، وأحزاننا، ونطلب منه سبحانه أن يتصرف ويفعل كمانريد ونرغب، فالله عز وجل منزه عن العواطف والمشاعر والأحزان والغضب والحزن والانتقام المشابه لما لدى المخلوقات .

وذهب آخرون إلى أن الدعاء ليس إلا تعبيراً عن حالة العجز والضعف الإنساني، فلا توجد ذات حقيقية خارج الإنسان يمكنها أن تستجيب للإنسان، أو تحس بأوجاعه وآلامه، لكن الإنسان هو يخلق هذه الذات؛ ليبثها مكنون شكواه وأحزانه "ولما كان الإنسان الواقعي غير مشبع الحاجات، وغير مستجاب الرغبات، وإمكانياته الفعلية لا تؤهله لتحقيق ما ينقصه، فإنه يلجأ إلى الدعاء كوسيلة للتعبير عما يتمنى، تفريجاً للنفس، وتحقيقاً لما يريد، حتى ولو على مستوى الكلام، فأصبح الدعاء الديني جزءاً رئيسياً من الخطاب الديني، وهو أكبر كتاب في البخاري، هو حيلة العاجز، الكلام تعويض عن الفعل، وحركة اللسان تعويض عن حركة البدن، بل تكونت حلقات لهذا السبب عند الصوفية للأدعية وكلما اشتدت الأزمات، ونقصت الحاجات، وعجز التحقيق الفعلي للأمنيات والرغبات اشتد الدعاء، وأصبح تعويضاً عن العجز الفعلي، فالقادر لا يدعو، والفاعل لا يسأل، وهو ما سماه إقبال لمن يرفع يديه إلى السماء داعياً "فلسفة السؤال". [8]

ويضيف الدكتور حسن حنفي :

"إن الابتهال والدعاء والسؤال لله لا تعني أن الإنسان ليس خالقاً لأفعال الشعور الداخلية، بل هي أقرب إلى تقوية الذات وتحمية الشعور، وعقد العزم، وإلا وقعنا في فلسفة السؤال، وفي موقف الشحاذة".[9]

"وإذا كان الدعاء تعبيراً عن العجز لزم التعويض كطريق ثان لتجاوز العجز، ويأتي هذا التعويض في صورة الإيمان بالإله الواحد القهار الذي يسند الجميع ولا يخذل أحداً [10]"

"ويُستعمَل الله" تعالى الله عز وجل" للإخافة والردع والحماية"،[11]

"هكذا ينشأ التأليه من الضعف إلى القوة، ومن العجز إلى الإرادة، فالإيمان بالله تأليه عِلّية ذاتية، وليست إثباتاً لموضوع خارجي "الله"، الله عملية تأليه ذاتية، وليس موضوعاً ساكناً خارجياً يشار إليه منفصلاً عن الذات، المعرفة وجود، والوجود معرفة " .[12]

الدعاء في هذه الرؤية الحَسْنَفِيَّة [13] ليس نابعاً من إيمان حقيقي بالله عز وجل، لأنه لا يوجد إله حقيقي بنظره وإنما الإله هو صناعة بشرية شعورية، الإنسان يصنع إلهاً ليدعوه، ليعوّض النقص الكامن في كيانه، وليبرر عجزه، وليستند إليه شعورياً ونفسياً، إنه بذلك يخترع ذاتاً يتقوى بها، ويحمي بها شعوره، ويستخدم هذه الذات المُخترعة للردع والحماية، فالتأليه منشؤه العجز والضعف، فهو قضية داخلية ليس لها وجود موضوعي خارجي، ولا يخفى على المطلع أن هذه الفلسفة الحَسْنَفِيَّة ما هي إلا قراءة لفلسفة الفيلسوف الألماني فيورباخ، وماركس من بعده .

هذه الأفكار البائسة بنظري منشؤها أمران :

الأول: التقليد لأسماء لامعة ومشهورة في سماء الفلسفة . "كما ذكر الإمام أبو حامد الغزالي –رحمه الله– في المنقذ من الضلال " [14]، والسير على خطى ماركس أو إنجلز أو نيتشة أو سبينوزا أو فيورباخ.

والثاني:الرغبة العارمة في التجديد حتى بما لا يفيد، على مبدأ خالف تُعرف، واستفزاز الآخرين للرد والتفنيد، والبحث عن الشهرة حتى ولو على طريقة " من بال في ماء زمزم ".

وهكذا نجد المتشكك أو الملحد يفسر لجوء الإنسان إلى خالقه في حالة الضعف والحاجة تفسيراً مادياً ماركسياً أو فيورباخياً أو داروينياً أو نفسياً فرويدياً، فيتجلى ذلك في كلامه المعترض فيه على الله عز وجل، أو في فعله الذي يريد فيه أن يتحدى خالقه ومولاه سبحانه وتعالى، كما مر معنا في بعض النصوص التي نقلناها عن بعض المتعثرين. المهم عنده أن لا يُسلِّم بالتفسير الديني وهو أن هذا اللجوء فطرة كامنة في نفس الإنسان، تستيقظ بعد أن كانت مغطاة بحجب من الشهوات والغفلات، وتظهر جليةً في أوقات المحن والشدائد، وهذا يمكن فهمه بِيُسرٍ حين نفهم أن الشأن الأساسي الذي خُلقت هذه الحياة الدنيا من أجله هو البلاء والابتلاء "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ" [الملك:2] فالحياة والموت مخلوقان لغاية جوهرية قامت عليها هذه الحياة الدنيا وهي الابتلاء، فلا يمكن أن تنفك عنه هذه الدار؛ لأنها دار الامتحان والاختبار، وليست داراً للجزاء .

ثالثاً: سبيل الحقيقة وإن أفضل مدخل للإجابة على إشكالات المتشككين، وأسئلة الحائرين، الولوج إلى جوهر هذا الإنسان ومحاولة إيقاظ شعوره بهويته الحقيقية، ووظيفته الأساسية في هذا الوجود، ربما تنفع وتجدي الأدلة الفلسفية والعقلية في أحيان كثيرة في هذا الباب، إلا أننا في هذا البحث سنسلك سبيلاً آخر وهو: النقر على زر الهوية، لتفعيل

شريط العبودية المغطاة بطبقات من الأغطية الكثيفة، لعل شعاعاً منها يخترق الحجب ويبدد كل موانع الاستيقاظ والنهوض.

وإن سبيلنا إلى هذه الغاية أن نلجأ إلى أهل الصنعة فيها، وهم أهل الله والعارفون به، والقاعدون في أعتابه، والمنطرحون على بابه سبحانه وتعالى، ونتأمل في تجربتهم الوجودية، لنأخذ منها العبرة والفهم لأنفسنا، وحياتنا، وقصتنا في هذا الكون.سَمِّهم إن شئت العارفين أو الصوفية أو الزهاد أو الأولياء أو أهل الله، إنهم قوم عرفوا حقيقة هذه الحياة، وعرفوا مَنْبَعَها ومَصَبَّها ومبدأَها ومنتهاها، فلا يشربون إلا من رأس النبع كما يقولون، لم يُتعبوا أنفسهم في تفاريع الحياة وتشعباتها، ولم يضيعوا وقتهم في وديانها ووهادها، عكفوا عند باب المليك المقتدر، ومرَّغوا هناك جباههم، وأطالوا سُهادهم، فهم قارُّون مطمئنون في كل الأحوال، في السراء والضراء، إن رضي عنهم فهم في سعادتهم على بابه ماكثون، وإن سخط عليهم فهم في رجائهم وأملهم على أعتابه متضرعون، لا يرون لأنفسهم ملجأ ولا منجىً من الله إلا إليه: "إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى" [العلق:8] "وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى"[النجم:42] وشعارهم في هذا حديث النبي ﷺ "من جعل الهموم هما واحدًا كفاه الله هم دنياه، ومن تَشَعَّبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك"[15]

تمثل التجربة الصوفية في فهم الدعاء وممارسته تجربة ذوقية عملية عميقة، يمكن أن تُفهم على أنها شكلٌ من أشكال الإجابة على التساؤلات والإشكالات التي ترد على موضوع الدعاء لدى كثير من العقول، وهي تجربة تقوم على ركيزتين: الفهم أولا، والذوق ثانياً، أو التشويق فهماً، والتذويق سلوكاً .

المبحث الأول: معنى الدعاء بين الذلة والاضطرار والعزة والاختيار

تمهيد: يعيش الإنسان في هذه الحياة بين خيارين لا ثالث لهما

الأول : أن يتقبل عبوديته لله عز وجل برضا واستكانة، فيكون عبداً ذليلاً لله عز وجل، فيعوضه الله عز وجل بأن يمنحه العزة والكرامة والسيادة في الكون، وعلى كل المخلوقات، والسعادة والراحة في الدنيا والآخرة، وهذا معنى قوله تعالى: "يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ" [المنافقون:8] "قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [البقرة:38] "قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى" [طه: 123]

الثاني : أن يرفض هويته الحقيقية، وهي العبودية، ويتنكَّر لها، ويتكَّبر على ربه عز وجل، فيعاقبه الله عز وجل بأن يُذِلَّه في هذا الكون لأدنى مخلوقاته، ويجعله عبداً أسيراً لشهواته، ثم لا يحصد في حياته إلا الشقاء والضنك في الدنيا والآخرة، وهذا معنى قوله عز وجل:" وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى" [طه: 124- 126] .

المطلب الأول: معنى الدعاء :

قال صاحب جوهرة التوحيد :

وعندنا أن الدعاء ينفع كما من القرآن وعداً يُسمع

والدعاء لغة : الابتهال بالسؤال، والرغبة فيما عند المسؤول من خير . واصطلاحاً : هو الطلب على سبيل التضرع وقيل: رفع الحاجات إلى رافع الدرجات، وورد الدعاء في القرآن الكريم بمعان منها: الاستغاثة: كما في قوله تعالى:

"بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ" [الأنعام:41] والنداء كما في قوله تعالى: "قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ" [القصص:25] والطلب والسؤال من الله كما في قوله تعالى: "أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ" [البقرة:186] وقوله عز وجل: "وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" [غافر:60] والخلاصة : أن الدعاء عبادة يثاب عليها العبد، وإن لم يحصل له ما طلب، قال ﷺ: "الدعاء مخ العبادة ".[16] وفي حديث آخر:" الدعاء هو العبادة "[1817] فلا ينبغي أن يُفهم الدعاء بأنه طلب فقط، ورغبة في تحصيل الأغراض، بل يُعبّر الدعاء عن مَحْض العبودية لله عز وجل، وخالص الافتقار والارتماء بين يديه جل وعلا، والتبرؤ من الحول والقوة، والاستسلام والتفويض لله عز وجل، وهذا معنى كونه مُخُّ العبادة، أو هو العبادة بحيث يتماهى معها بشكل مطلق .

المطلب الثاني: الاضطرار والافتقار

الاضطرار والافتقار هما التعبير الحقيقي عن هوية الإنسان وجوهره، فإذا تحقق العبد بهما بين يدي مولاه فقد سلك طريق الوصول، وهو ما نبه عليه ابن عطاء الله –رحمه الله– بقوله: " ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار" ويبين ذلك الشيخ زروق –رحمه الله تعالى– بقوله:

"لأن ذلك يقتضي الرجوع إليه بلا علة، والوقوف بين يديه على نعت المسكنة والمذلة، وخير أوقاتك وقتٌ تشهدُ فيه فاقتَك، وتُردُّ فيه إلى وجود ذِلَّتكَ، والظاهر أن الاضطرار هو فاعل الطلب، فالتقدير: ما طَلب لك الحوائجَ من الله مثل الاضطرار، ولا أسرعَ لك بالمواهب منه، لقوله تعالى: " أَمَّن يُجِيبُ المُضطَرَّ " ويُحتمل أن يكون المراد: لا مطلوب منك مثل الاضطرار، وذلك لأنه متيسر عليك، إذ هو وصفك، وبه تصل إلى رضوان الله مولاك".[19]

وقال ابن عجيبة –رحمه الله– :

"إنما كان طلب العارفين بلسان الحال، دون المقال، لما حققهم به من وجود معرفته حتى شهدوا مِنَّتَه في محنته، ونعمَتَه في نقمته، فإذا تجلى لهم بالقوة والجلال، تلقوه بالضعف والإذلال، فحينئذ يتجلى لهم باسمه الجميل، فيمنحهم كل جميل، وإذا تجلى لهم باسمه العزيز أو القهار، تلقوه بالذلة والافتقار فتتوارد عليهم المواهب الغزار... إذا أردت ورود المواهب عليك، وهي العلوم اللدنية والأسرار الربانية، فلا شيء أسرع لك بها مثل الذلة والافتقار، بين يدي الحليم الغفار، يكون ذلك قلباً وقالباً، فينبغي لك حينئذ أن تستعد لكسب المواهب، ونيل المراتب، قال تعالى : "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [التوبة:60] وقال تعالى: "أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ" [النمل:62] وقال أيضاً: "وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [آل عمران:123] وقال النبي ﷺ: إن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا "[20] [21]

المطلب الثالث: الإنسان بين الأمانة والعبودية

إن الأساس في وجود الإنسان على ظهر هذه الأرض هو التكليف قال الله عز وجل: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" [الذاريات:56] إذ إن الإنسان رضي أن يكون عبداً لله عز وجل، قال جل شأنه: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ

بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" [الأعراف:172]، فمن مقتضيات العبودية التسليم والاستسلام طوعاً واختياراً، وإلا فهو عبدٌ قهراً واضطراراً . وهكذا نفهم قول الشيخ ابن عطاء الله –رحمه الله–:

"ولذلك قلّ أن تجد الزاهد والعابد إلا مكموداً حزيناً، لأنه علم أن الله طالَبَه بالعبودية وحَمَّله أعباءَها، وألزمه ما أشفقت السماوات والأرض والجبال من حمله، قال الله سبحانه:" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" [سورة الأحزاب: 72] فعاين الزُّهَّاد ثقل ما حملوا، ولم ينفذوا إلى شهود لطف الله؛ الحامل للأثقال عن عباه المتوكلين عليه، فلذلك لزمهم الكمد، واستولى عليهم الحزن،. وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حُمِّلوا من التكاليف أمراً عظيماً، وعَلموا ضعفهم عن حمله، وعن القيام به متى وُكِلوا إلى نفوسهم، قال الله سبحانه: "يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا" [النساء:28]. واعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله؛ حمل عنهم ما حَمَّلهم، قال الله سبحانه: "وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُه" [الطلاق:3] فرجعوا إليه بصدق الرجعى، فحمل عنهم الأثقال، فساروا إلى الله محمولين في محفات المنن، تروح عليهم نفحات اللطف، والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف، تلازمهم المشقات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه؛ فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم، إلى شهود سابق توفيقه لهم؛ فطابت لهم الأوقات، وأشرقت فيهم العنايات"[22]

نجد هنا أن الشيخ ابن عطاء الله –رحمه الله –كيف يربط الحمل الثقيل الذي تحمَّله الإنسان وهو الأمانة بالعبودية، فالإنسان إذا نظر إلى ثقل ما يحمل أصابه الكمد والحزن والخوف من وعورة الطريق، ولكنه إذا ما لجأ إلى الله عز وجل، وتوكل عليه حق التوكل، هدأت نفسه، واستراحت روحه، فطابت له الأوقات وأشرقت فيه العنايات. ثم يضيف الشيخ ابن عطاء الله –رحمه الله–:

"ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره، وقد عاتب الله قوماً اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار، فلما زالت زال اضطرارهم، قال الله سبحانه: "وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا" [الإسراء:67] وقال عزوجل: "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [يونس:12] وقال عزوجل: "قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" [الأنعام:63] إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى. ولمَّا لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم، سلط الحقُّ عليهم الأسبابَ المثيرةَ للاضطرار ليعرفوا قهرَ ربوبيته وعظمة إلهيته وكبريائه".[23]

يريد الباري عز وجل من عباده أن ينغمسوا في حقيقة عبوديتهم دائماً، ليكونَ معهم بتوفيقه وهدايته ولطفه ورحمته، فلما لم يفعلوا سلَّط عليهم أسبابَ الاضطرار ليردَّهم إليه تفضلاً منه ورحمة بهم. إن الاضطرار بنظر القوم بحد

ذاته نعمة عظمى، أُعطيَ الإنسان أم لم يُعطَ.

المطلب الرابع: الروح السامية والمطالب العالية

الإسلام يسمو بالإنسان إلى درجة عالية، حتى يكاد يُفضَّلُ على الملائكة الذين هم صفوة الله من خلقه، فليست هذه الحياة الدنيا من أجل مطالب تافهة، وغايات سخيفة، يريد الإسلام للإنسان أن يكون طَمُوحاً، وذو هِمَّة عالية، تطلب القمة، ولا ترضى بها بديلاً، ولذلك قال النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ "[24] وحتى الفردوس الأعلى عند العارفين ليس هو المطلب والغاية، بل هناك ما هو أعظم وأسمى: مقام القرب من الله عز وجل: "فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ" [القمر:55] والفوز بمحبة الله، والوصول إلى رضاه، فهو غاية المنى، وإليه المنتهى سبحانه وتعالى، ولذلك قال أبو يزيد البسطامي –رحمه الله–:

"لله رجالٌ لو حجبهم في الجنة عن رؤيته؛ لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار، لكنهم على الأرائك ينظرون ".[25]

وقال ابن عطاء الله –رحمه الله–:

"النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهود اقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره؛ إنما هو بوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم ".[26]

كم هو شقيٌّ ذلك الإنسان الذي رضي بالدون في هذه الحياة الدنيا، فأضاعها في منافسات كاسدة، ومسابقات خائبة، وذُهِل أو شُغِل عن أن هذه الحياة هي ساحة للتنافس على الأمور العظيمة الجليلة، تنافسٌ على نعيم يبقى ولا يزول، وتنافسٌ على مراتب عالية، فشتان بين من يطلب معالي الأمور ومن يطلب سفاسفها، ومن يطلب القمة وينافس عليها، ومن يطلب المراتب الدنيَّة ويضيع وقته فيها-

وإذا كانت الفردوس الأعلى هي القمة، فإن المنافسة عليها تقتضي العمل، وبذل الوسع في المنافسة، لأن طلب العلا بدون عمل من الأماني الفاسدة، ونهايته الخيبة والخسران، "فالداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر ".[27]

المبحث الثاني: فلسفة المنع والعطاء عند الصوفية

يفهم الناس عادة أن إجابة الدعاء تكون بالعطاءات الظاهرة، وتحصيل الأغراض المطلوبة، كأن يدعو المحروم من الأولاد طالباً الولد، أو المريض طالباً الشفاء، أو المبتلى ببلاء معين طالباً رفع البلاء، أو المظلوم طالباً الانتصار له من ظالمه، أو الفقير طالباً الغنى، إلخ. فإن لم يحصل ذلك للعبد في دعائه فهو يتضايق ويتململ لأن الله عز وجل بنظره لم يستجب دعاءه، إلا أن للصوفية فهماً آخر لمعاني العطاء والمنع، يستند هذا الفهم في مجمله على القاعدة الصلبة التي يقيمون عليها علاقتهم مع الباري عز وجل وهي: جوهر العبودية، فما هو هذا الجوهر؟

المطلب الأول: ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك

هذا معنى من المعاني العميقة للفهم عن الله عز وجل، حيث دائماً يرى الفضلَ لله عز وجل، والمنةَ له في عطائه وفي مَنْعِه، في السراء والضراء، وهو في الحقيقة معنى يتجلى في قول النبي صلى الله عليه وسلم:"عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[28] يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى:

"تفكرت في قول شيبان الراعي لسفينا الثوري: يا سفيان عُدَّ مَنْعَ الله إياكَ عطاءً منهُ لك، فإنه لم يَمْنَعْكَ بُخْلاً، إنما مَنَعَكَ لُطْفاً، فَرَأَيْتُه كلامَ من قد عرفَ ربَّهُ. وكذلك إنفاذ قدر القوت فإنه نعمة، وفي الصحيحين أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا"[29] ومتى كثر تشتت الهمّ، فالعاقل من علم أن الدنيا لم تُخلق للتنعيم، فقنع بدفع الوقت على كل حال".[30]

والمنع والعطاء عند العارفين له معاني عديدة، كما قال ابن عطاء الله رحمه الله:

"ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك"[31]

وقال ابن عجيبة –رحمه الله–:

"الغالب على النفس الأمارة اللوامة أن تنبسط بالعطاء، وتنقبض بالمنع؛ لأن في العطاء مُتعتَها وشهوتها، فلا جرم أنها تنبسط بذلك، وفي المنع قطع مواردها وترك حظوظها، ولا شك أنها تنقبض بذلك، وذلك لجهلها بربها وعدم فهمها، فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع عين العطاء، والعطاء عين المنع ".[32]

المطلب الثاني: أساس الراحة الفهم

إن الفهم لمعنى المنع والعطاء راحة للقلب والعقل، ولذلك قال ابن عطاء الله:

"متى فُتح لك بابُ الفهم في المنع، عاد المنعُ هو عين العطاء" [33]

وقال الشيخ زروق رحمه الله معللًا ذلك:

"لأنه يردُّكَ إلى مولاك، ويصلك به من جهة ما به تولاك، والنعمة ما وصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق. ومن مقتضيات الفهم عن الله وجود الرضا عنه سبحانه وتعالى، لأن الرضا عن الله جَنَّة مُعجَّلة، وحالة حسنة، ومفتاح كل خير وبِر، وقال عبد الواحد بن زيد –رضي الله عنه–: الرضا باب الله الأعظم، ومستراح العابدين، وجنة الدنيا".[34]

المطلب الثالث: " إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه"[35]

وهذا كله يذوقه من يفهم عن الله، قال ابن عجيبةرحمه الله:

"لأن الفهم عن الله يقتضي وجود المعرفة به، ولا تكون المعرفة كاملة حتى يكون صاحبها يعرفه في الجلال والجمال، والمنع والعطاء، والقبض والبسط، وأما إن كان لا يعرفه إلا في الجمال فهذه معرفة العوام؛ الذين هم عبيد أنفسهم، فإن أعطوا رضوا وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون. فلا يكون المحب صادقاً في محبته، ولا العارف صادقاً في معرفته، حتى يستوي عنده المنع والعطاء، والقبض والبسط، والفقر والغنى، والعز والذل، والمدح والذم، والفقد والوجد، والحزن والفرح، فيعرف محبوبه في الجميع. ويرضى ويسلم في الجميع، فإن لم يجد ذلك عنده سواء فلا يدَّعي مرتبة العشق والهوى، فيعرف قدره، ولا يتعدى طوره، ولا يترامى على مراتب الرجال، من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان، ولابن الفارض : فإن شئتَ أن تحيا سعيدًا فَمُت به شهيداً وإلا فالغرام له أهل ".[36]

المطلب الرابع: الرضا في المنع والعطاء، والبلاء والرخاء

فمتى ما رزق العبد الرضا؛ فإن المنع يصبح عين العطاء، لأنه يتقبل من ربه عز وجل كل ما يصيبه من نعم ومن نقم برضا نفس، وهدوء قلب، وطمأنينة روح، لماذا؟ لأنه من الله، من سيده ومولاه، كما قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه " لِيُخفِّفْ عنك ألمَ البلاءِ عِلْمُكَ بأنه هو المبلي لك "[37]، وهي كما نرى درجة عالية من العبودية والتسليم لله جل وعلا، تضفي على النفس درجة عالية من الراحة والطمأنينة والسكينة. لأن العطاء والمنع من الله جل شأنه لا يتعلق بظواهر الأمور وشكلياتها، بل يتناول خفايا النفس والروح ومطوياتها التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، ولذلك قال ابن عجيبة رحمه الله :

" فربما أعطاك ما تشتهيه النفوسُ، فمنعك بذلك حضرةَ القدوس، وربما منعك ما تشتهيه نفسُك فيتم بذلك حضورُك وأنسُك، وربما أعطاك متعةَ الدنيا وزهرتَّها، فمنعك جمالَ الحضرة وبهجتَها، وربما منعك زينةَ الدنيا وبهجتَها، فأعطاك شهودَ الحضرة ونظرتَّها، وربما أعطاك قوتَ الأشباح، فمنعك قوتَ الأرواح،".[38]

المطلب الخامس: الخوف والرجاء في المنع والعطاء

المؤمن لا يقر له قرارٌ، ولا يهدأ له بالٌ حتى يطمئن إلى نهايته عند الله عز وجل، وهذا لا يكون إلا بعد الموت، لذا فهو متردٌ دائماً بين الخوف والرجاء، فقد روى واثلة بْنُ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ:" أُقْسِمُ، الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ أَنْ لَا يَجْتَمِعَا فِي أَحَدٍ فِي الدُّنْيَا فَيُرَحْ رِيحَ النَّارَ، وَلَا يَفْتَرِقَا فِي أَحَدٍ فِي الدُّنْيَا فَيُرَيَّحْ رِيحَ الْجَنَّةِ " [39]

وقال أَبو عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ:

"الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ هُمَا كَجَنَاحَيِ الطَّيرِ إِذَا اسْتَوَيَا اسْتَوَى الطَّيْرُ وَتَمَّ طَيَرَانُهُ، وَإِذَا نَقَصَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا وَقَعَ منه النَّقْصُ، وَإِذَا ذَهَبَا جَمِيعًا صَارَ الطَّائِرُ فِي حَدِّ الْمَوْتِ"[40]

وقال الشيخ زروق –رحمه الله تعالى–:

"إذا كان الأمر كذلك فكن خائفاً راجياً في عطائه ومنعه، راجعاً باللجأ والافتقار إليه فيهما، غير مطمئن بشيء منهما، إذ قد يكون في طَيِّه خلاف ما ظهرت به صورته، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله: "فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ" [الفجر:15] أي ليس الأمر كذلك، بل قد يكون المنع عطاء، والعطاء إهانة..."[41]

المطلب السادس: "العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله عز وجل إحسان"[42]

لأن العطاء من الناس تترتب عليه حقوق وواجبات ومسؤوليات، فيصبح الإنسان أسيراً لإحسانهم، وعبداً لعطائهم، ومتقلداً لمنحهم، أما المنْعُ من الله عز وجل فيترتب عليه اللجوء إليه، والتضرع بين يديه، والتفويض له، وهذه نعمة عظيمة، لا يعرف قيمتها إلا من ذاق لذتها، ويشرح ذلك الشيخ زروق رحمه الله بقوله :

"لأن المنع منه تعالى يقتضي اللجأ إليه، والدوام بين يديه، وحسن الاختيار فيما وجه به إليه، إذ لا يمنعك من بخلٍ، ولا عدمٍ، ولا افتقار، ولا احتياج، وإنما يمنعك رحمة بك، فالعطاء منه هو العطاء، والمنع منه هو عين العطاء؛ لمن فهم مراده به، ولكن لا يفهم العطاء في المنع إلا صِدِّيق .

ويكون العطاء منعا إذا كان صارفاً لك عنه. والله أعلم".[43]

وقال رحمه الله:

"فأما العطاء من الخلق فهو حرمان من وجوه ثلاث: أحدها: تَقَلُّدُ المنَّة، وقد قال الحكماء: الصبر على العدم أيسر من تَقَلُّدِ المنن، والثاني: صرفُ الوجهِ إليهم، والأُنْسِ بهم، وربما أدى إلى الاعتماد عليهم؛ فكان سبب الطرد والإبعاد والعياذ بالله, والثالث: شَغْلُ الوقت بهم مكافأة وغيرها طلباً للسلامة من الذل معهم، وإلا كنت ذليلاً فيهم".[44]

المطلب السابع: يُشهدُك الباري عز وجل بِرَّه في عطائه، وقهرَه في منعه

لأن الله عز وجل يريد أن يُقرّبك منه، فمرة يقربك بالنعم والعطاء، ومرة بالمنع والبلاء، مرة بالجمال ومرة بالجلال، وهو ما عبر عنه ابن عطاء الله رحمه الله بقوله:

"متى أعطاكَ أَشْهدَكَ بِرَّهُ، ومتى منعكَ أَشْهَدَكَ قهرَهُ، فهو في كل ذلك مُتَعَرِّفٌ إليك، ومُقْبِلٌ بوجودِ لُطْفه عليك"

وقال ابن عجيبة –رحمه الله– موضحاً ذلك:

"من أسمائه اللطيف الخبير، فهو تعالى لطيف بعباده، رحيم بخلقه في كل وقت، وعلى كل حال، سواء أعطاهم أو منعهم، وسواء بسطهم أو قبضهم، فإن أعطاهم أو بَسَطَهُم أَشْهَدَهُمْ بِرَّهُ وإحسانَه، فعرفوا أنه سبحانه بارٌّ بعباده لطيف بخلقه، رحيم كريم جواد محسن، فتعظم محبتهم فيه، ويكثر شوقهم واشتياقهم إليه، ويكثر شكرهم، فيزداد نعيمهم، وفي هذا ما لا مزيد عليه من البر والإحسان، والجود والامتنان، وإن منعهم أو قبضهم أشهدَهم قهرَه وكبرياءَه، فعلموا أنه قهَّارٌ كبيرٌ عظيمٌ جليلٌ، فخافوا من سطوته، وذابوا من خشيته... فوردوا يوم القيامة خفافاً مُطَهَّرين، فرحين مبتهجين، إذ لا يجمع الله على عبده خوفين ولا أمنين، فمن أَخافَه في الدنيا أمَّنَه يوم القيامة، ومن أمَّنه في الدنيا فاغتر أخافه يوم القيامة كما في الحديث" [45] [46]

المطلب الثامن: الطفولة والرجولة بين المنع والعطاء

الطفولة هنا يقصدون بها أحد أمرين: إما من التَّطفُّل، أي أن يدعي أنه من القوم وهو ليس منهم؛ لأنه لا يَقْدرُ على أحوالهم، ولا يُطيق صبرَهم، ولا يرتفع لصدقهم، فهو متطفِّل، أو أنه من الطفولة عكس الرجولة، أي أنه كالطفل يَسكتُ أن أُعطيَ، ويبكي إن مُنع، بينما يريد القوم ممن ينتمي إليهم أن يكون رجلاً في السراء والضراء، في البلاء والنعماء، وقد ذكر القرآن الكريم الرجولة في معرض المدح في مواضع منها قوله تعالى: "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا" [الأحزاب:23]، وقال عز وجل في آية أخرى: "رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ" [النور:37]

قال ابن عطاء الله –رحمه الله–:

"متى كنت إذا أُعطيت بسطك العطاء، وإذا مُنعت قبضك المنع فاستَدِلَّ بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك في عبوديتك" [47]

وقال الشيخ ابن عجيبة رحمه الله شارحاً:

"الطفولية والتطفل هو الدخول في قوم وليس منهم، ولم يستأذنهم، والطفيلي هو الذي يأتي للوليمة من غير دعوة... فشبه المؤلف به من دخل مع القوم ولم يتحقق ما تحققوا به من استواء الأحوال ... إذ الصدق في العبودية يقتضي استواء النعمة والبلية... فإذا كان الفقير[48] يتضعضع عند الجلال، وينهزم عند حملة الأبطال، فاعلم أنه ضعيف الحال، متطفل على مقامات الرجال" .[49]

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى:

"هذه علامةٌ يَعرف بها المريد حالَه في العطاء والمنع، والمدح والذم، فإذا كان يَقبل ذلك ويَرده من حيث الطبعُ والعادة، ومن حيث هو إقبالٌ وإدبار؛ فذلك دليل نقصه، إذ هو كالطفل في إقباله وإدباره، لا يشعر بما وراء العطاء والمنع ".[50]

إنه اختبار صدق للإنسان في تعامله مع ربه عز وجل، فالصادق مع ربه لا يتغير في يسر أو عسر، ولا رخاء أو شدة، ولا فقر أو غنى، ولا صحة أو مرض، لأنه يعلم أن هذا كلّه من ربه عز وجل اختباراً وامتحاناً له "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ" [الأنبياء:35]

المبحث الثالث: فلسفة الطلب عند الصوفية

الطلب عند العارفين له دلالات عميقة، ويفهمون منه حكماً جليلة في التعامل مع الباري عز وجل، ومن خلال الطلب وما يَخُفُّ به من قرائن قبلية أو بعدية أو آنية يستخلصون علامات وإفادات تخص النفسَ الإنسانية وأعماقَها، وتخصُّ باطنَ الصلة بالله سبحانه وتعالى، فيصححون مسارهم، ويرتقون بأنفسهم، ويصلحون قلوبهم، ويعالجون أمراضهم، ونجد ذلك في المطالب الآتية :

المطلب الأول: متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك

هكذا قال ابن عطاء الله رحمه الله. [51] وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى موضحاً ذلك:

"متى أطلق لسانك بالطلب على وجه العبودية أو غيرها انطلاقاً ضرورياً فاعلم أنه يريد أن يعطيك ما تريد كما يريد، فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من أُذن له في الدعاء فُتحت له أبواب الرحمة، وما سُئل الله شيئاً قطُّ أحب إلى الله من أن يسأل العفو والعافية "[52]

وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى:

"لأن الحق تعالى جعل الطلب سبباً من الأسباب، فإذا أراد أن ينجز للعبد ما سبق له فتح له فيه باب الطلب، فإذا حصل منه الطلب، حصل الذي قسم له في الأزل إظهاراً لحكمته، وإخفاء لقدرته، وتغطية لسرّه، فالدعاء من جملة الأسباب العادية كالحرث والدواء والتزوج في الولد، وغير ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة "[53] ".

المطلب الثاني: خيرُ ما تطلبُه منه ما هو طالبُه منك

كمثل قوله تعالى على لسان خليله: "رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ" [إبراهيم:40] وكمثل قوله ﷺ "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" [54] ويبين ذلك الشيخ زروق رحمه الله بقوله:

"لأنه مختاره لك، وهو العالم بمصالحك، والقادر على توصيلها إليك، وأولى ما نرجع به إلى الله ما جاءنا عن الله، والذي هو طالبه منا ثلاث: التخلّي عن كل شيء إلا عنه، والتحلّي بما يرضيه عنك ويردك إليه، والدوام على ذلك حتى تلقاه بلا فترة ولا تقصير، ويعبر عن ذلك بإحدى عبارات ثلاث: الطاعة والغنى به عنها، والصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية، وامتثال أمره، والاستسلام لقهره".[55]

وقال الشيخ ابن عجيبة رحمه الله:

"والذي طلبه منك هي الاستقامة ظاهراً وباطناً، ومرجعها إلى تحقيق العبودية في الظاهر، وكمال المعرفة في الباطن، أو تقول: الذي طالبه منا إصلاح الجوارح الظاهرة بالشريعة قياماً برسم الحكمة، وإصلاح القلوب والأسرار الباطنة بالحقيقة قياماً بوظائف القدرة " [56]

وقال رحمه الله:

"فمتى أطلق لسانك أيها المريد بالطلب لشيء تجلّى في قلبك، أو احتجتَ إليه، فاعلم أن الحق تعالى أراد أن يعطيَك ما طلبتَ منه، فلا تحرص ولا تستعجل، فكل شيء عنده بمقدار، فإن أطلق لسانك في الدعاء من غير سبب، فخير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك ".[57]

المطلب الثالث: الأدب قبل الطلب

لأنك عبدٌ في حضرة المِلك الجبار، قيوم السموات والأرض، ومن نعمه عليك أن وفقَّك للوقوف بين يديه، وشرَّفك بعبوديته، وأقامك لدعائه وطاعته، قال ابن عطاء الله رحمه الله:

"ليس الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن تُرزقَ حسن الأدب" [58]

ويوضح ذلك الشيخ زروق رحمه الله تعالى بقوله:

"ليس الشأن في هذا الطريق وجود الطلب، لأن ما عند الله لا يُنال بالأسباب، وإنما الشأن أن تُرزق حسن الأدب؛ لأن به تتحقق العبودية وقد قال تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" [الكهف:7] لم يقل أكثرهم طلباً، ولا أعظمهم جداً فيه، والأدب يختلف باختلاف الأقوال والأحوال، لكنه يرجع إلى ثلاثة: إقامة الفرائض، واتباع السنن، ومجاملة الخلق، كما قال عليه السلام: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن" [59] وهذه هي الأصول التي من تركها حُرم الوصول. ثم رأس الأداب كلها راجع للزوم وصفك مع التعلق بوصفه ".[60]

المطلب الرابع: حين يكون الطلب عبوديةً، أو دنيوية

وقد عبر عن هذا المعنى ابن عطاء الله رحمه الله بقوله:

"لا يكن طَلَبُكَ سبباً إلى العطاء منه، فيَقلَّ فَهمُكَ عنه، وليكن طَلَبُكَ لإظهار العبودية، وقياماً بحق الربوبية"، قيل لبعضهم: ما تشتهي؟ قال ما يقضي الله. وقال بعضهم: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلا فالرب يفعل ما يشاء".[61]

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى:

"الطلب على وجه التسبب هو أن ترى وقوع ما تريده ملزوماً به، أو لازماً له، بحكم سنة الله تعالى على وجه لا ينفك؛ لأن السبب ما يلزم من عدمه العدم، ومن وجوده الوجود، وذلك وإن كان يقتضيه ظاهر النصوص فباطن الحقيقة يدفعه، وهي الأصل، فوجب مراعاتها وتأويل النصوص بأن ذلك على وجه المقارنة والتوقيف؛ بأن تعتقد بأن الدعاءَ عبوديةٌ اقترنت بسبب الحاجة كاقتران الصلاة بوقتها، ورُتّبت عليها الإجابة، كما رُتّب ثواب الأعمال عليها، فالعطاء من وجه الفضل، والعمل لمحض العبودية، واقترانها لإظهار الحكمة. ووجه انتفاء الفهم باعتقاد السببية؛ أنه إن أُعطيَ لم يشكرْ، وإن شَكرَ كان شُكْرُهُ ضعيفاً؛ لملاحظته سببا في التحصيل، لأن الفرحَ بالمنَّة دون استشعار سببٍ؛ أقوى منه مع استشعاره، وإن مُنع لم يرضَ، وإن رضي فلا من حيث رؤية اختيار الحق تعالى، بل من حيث رؤية تقصيره، وهو نقص، والمطلوب في ذلك هو ما ذكره: وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحق الربوبية، وهما متلازمان، بل كل واحد منهما عين الآخر، فالصدق في العبودية عين القيام بحقوق الربوبية، وبالعكس، لكن يختلف البساط ".[62]

يتضح لنا من خلال توضيح الشيخ زروق رحمه الله تعالى أن فكرة السببية الاقترانية " عندها لا بها "كما أوضحها الغزالي رحمه الله وغيره من علماء أهل السنة هي التي تهيمن على اعتقاد أهل التصوف في أدق التصرفات والاعتقادات، فالفاعل الأوحد في هذا الكون هو الله عز وجل، وما تبقى إنما هي صور لإرادة الله عز وجل وعلمه وقدرته.

المطلب الخامس: ما تطلبه بنفسك، وما تطلبه بربك

وهو ما يشير إليه ابن عطاء الله رحمه الله:

"ما توقفَ مطلبٌ أنت طالبه بربّك، ولا تيسَّر مطلبٌ أنت طالبه بنفسك"

ويشرح لنا ذلك ابن عجيبة بقوله:

"إذا عرضت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أردتَ أن تُقضى لك سريعاً فاطلبها بالله، ولا تطلبها بنفسك، فإنك إذا طلبتها بالله تيسر أمرها، وسَهُلَ قضاؤها، وإن طلبتَها بنفسك صُعُبَ قضاؤُها وتعسَّر أمرُها، ولا يَتوقف ويُحبَس أمرٌ طلبتَه بربك، ولا يتيسر ويَسهُل أمرٌ طلبتَه بنفسك، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" [الأعراف:128] فكل من استعان بالله وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له، وكان من المتقين، وقال تعالى: "وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" [الطلاق:3] أي كافيه كل ما أَهمَّه، وقال النبي ﷺ لبعض أصحابه وهو سويد بن غفلة: "لا تطلب الإمارة فإنك إن طلبتها وُكلت إليها، وإن أتتك من غير مسألة أُعنت عليها" [63] [64]

المطلب السادس: علامات الطلب بالله والطلب بالنفس

وهذا ما يوضحه الشيخ زروق رحمه الله تعالى بقوله:

"الطلب بالله تعالى هو الاستناد إليه في تيسير المطلب، وعلامته ثلاثة: التفويض في المراد، والتوكل

في التحصيل، والاستقامة في التوجه، فإذا تمت هذه فالمطلب متيسر، سواء وُجِد المراد أو لم يوجد، لأن المقصود تبريد حرقة الاحتياج، ولا بقاء لها مع التفويض، لأن عاقبة الرضا في الوجود والعدم، والطلب بالنفس هو الاستناد إليها في تحصيل المراد، وعلاماته ثلاثة: حب الموافقة من غير تفويض، واعتماد الأسباب من غير توكل، والتهور في وجه التحصيل دون تقوى ولا استقامة، وكلها عائدة بالضرر في الوجود والعدم، فالمطلب وإن تيسَّر بها صورة، فهو حرمان في الحقيقة، لما فيه من نسيان الشكر، ومفارقة الحق، والاعتماد على الخلق"[65]

وقال في التنوير:

"ما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه: "وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا" [الإسراء:80]، وبحسب هذا فالرجوع إلى الله علامة الربح، والرجوع إلى النفس علامة الخسران"[66]

المطلب السابع: الكريم لا تتخطاه الآمال

هذا شأن الناس في تعاملهم مع كرام الناس في الحياة الدنيا، فكيف مع أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى، ومن هنا قال ابن عطاء الله رحمه الله:

"لا تتعدَّ نيةُ همَّتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال"

وعَقَّب ابن عجيبة بقوله:

"قد علمت أن ما سوى الحق خيالٌ وهمي لا حقيقة لوجوده؛ فإذا أَنزل الله بك حاجة كفاقة أو شدة أو غير ذلك من العوارض فأنزلها بالله، واجعلها تحت مشيئة الله، وغِبْ عنها في ذكر الله، ولا تلتفت إلى ما سواه تعلقاً وتملقاً ففي الحديث: " من لم يسأل الله يغضب عليه[67] . ومن قلة حياء الإنسان أن يرفع إلى غيره ما أنزله عليه الحق تعالى من أحكام قهره؛ مع علمه تعالى بإحسانه وبِرِّه، وعدم انفكاك لطفه عن قدره"[68]

ويزيدنا الشيخ زروق فهماً لمقاصد هذه الحكمة بقوله:

"إنه هو الذي أورد عليك الاحتياج، وقد عرفتَ أنه غني قدير قوي، ومن سواه لا غنى له ولا قدرة ولا قوة، وإذا كان الأمر كذلك فرفعها للعاجز الفقير الضعيف لا يصح، وقال الله تعالى: وقال الله تعالى: " وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ" [الأنعام:17-18]، قال بعض العارفين المكاشَفين: قيل لي في يقظة كالنوم، أو نوم كاليقظة... وإنما ابتليتك بالفاقة لتفرغ منها إليَّ، وتتفرغ بها لديَّ، وتتوكل فيها عليَّ، سَبَكْتُكَ بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً، فلا تُزَيَّفَ بعد السَّبْكِ، وَسَمْتُكَ بالفاقة، وحكمت لنفسي بالغنى، فإن وصلتَها بي وصلتك بالغنى، وإن وصلتَها بغيري قطعتُ عنك مَوادَّ معونتي، وحسمتُ أسبابَك من أسبابي طرداً لك عن بابي، فمن وَكَلْتُه إليّ مَلَكَ، ومن وَكَلْتُه إليه هَلَكَ"[69]

المبحث الرابع: فلسفة السكوت

عند القوم لا تقتصر الحكمة على الكلام، بل قد تكمن الحكمة أكثر في السكوت أو الصمت، وبالتالي فإن الحكمة القائلة: "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب" يمكن أن تكون صحيحة في كثير من الأحيان، إلا أن السكوت حالٌ مهم عند القوم، وحتى يكون محموداً له آدابه، وشروطه، ومعاييره ومحاذيره، ويتبدى لنا ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: هل الأفضل الدعاء أو السكوت والرضا بما سبق به القدر ؟

اختلف الناس في هذا فطائفة قالت: يكون صاحب دعاء بلسانه، ورضا بقلبه ليأتيَ بالأمرين جميعاً. وأخرى قالت السكوت تحت جريان الحكم أتم، والرضا بما سبق به القدر أولى. وحكى الطرطوشي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: "ما دعوت الله منذ خمسين سنة، ولا أريد أن يدعو لي أحد [70] واحتجوا بان امرأة بها لَمَمٌ سألت رسول الله ﷺ أن يدعو لها الله عز وجل، فقال: "أتصبرين ولا حساب عليك [71]. وسأله الأنصار أن يدعوَ اللهَ أن يكشفَ الحُمَّى عنهم فقال: "أوْ تصبرون فتكون لكم طهراً. [72] وروى أنه ﷺ قال: "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين" [73]

وقال القشيري رحمه الله تعالى: الأولى أن يُقال:

"إذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء أولى به، وإذا وجد في قلبه إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم"[74]

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى:

"كما لا يصح أن يكون الطلب سبباً؛ لا يصح أن يكون تذكيراً ولا تنبيهاً، لأنك إن قلت بالسببية فَجَلَّ حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل، وإن قلت تذكيراً فالتذكير للإغفال ولا إغفال، وإن قلت تنبيهاً فالتنبيه للإهمال ولا إهمال، وكيف يصح شيء من ذلك وهو غني كريم، رحيم عالم بما قلَّ وجلَّ من أحوالك، لا تعتريه العوارض، ولا تطرأ عليه الآفات، إذ ذلك كله عليه تعالى محال، والقصد بالجميع هو إظهار الفاقة؛ لأنها محط الفوايد والعوايد، كما نبه عليه المؤلف "ابن عطاء الله" بقوله: ورود الفاقات أعياد المريدين"[75]

قال الزبيدي:

"والصواب أن الدعاء أولى مطلقاً وعليه الجمهور، فإنه نفسُه عبادة، والإتيان بالعبادة أولى من تركها، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: الدعاء هو العبادة [76] ثم قرأ قوله تعالى: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" [غافر:60] وقد دعا النبي ﷺ بكشف البلايا والشدائد... ثم إن الدعاء يستدعي حضور القلب مع الله بالتضرع والاستكانة وإظهار العبودية، والإقرار بالافتقار، والاعتراف بالربوبية، وذلك هو منتهى العبادات وخلاصتها، لذا كان الدعاء مخ العبادة، ومخ كل شيء خالصه، والاشتغال بذكر الحق حال الدعاء يوجب مقام الهيبة في القلوب، والإثابة في الطاعة، والانقلاب عن المعصية، ولزوم الباب يستدعي الإذن في الدخول، وقد قيل: من أدمنَ قرعَ الباب ولجَّ ولجَ . هذا وملازمة

الدعاء رافعة للبلاء والشقاء كما أخبر الله تعالى عن خليله "وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا" [مريم:48]"[77]

المطلب الثاني: ربما دلَّهُمُ الأدبُ على ترك الطلب

الأدب مع الله عز وجل هو المقدَّم دائما لدى القوم، وهو ما عبر عنه الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله بقوله:

"ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتماداً على قسمته واشتغالاً بذكره عن مسألته"

قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى موضحاً ذلك:

"في قوله: (ربما) إثبات للشيء وقسيمه بطريق التجوز، فكما قد يدلهم الأدب على ترك الطلب قد يدلهم على وجوده، وقد يدلهم على التعريض، وهو بينهما، فهي إذن ثلاثة : طلب: وموقفه عند جريان العوائد، وملاحظة الأسباب، وظهور أثر الكسب والاكتساب، وتعريض: وموقفه عند تعذر الأسباب، ورجحان الحقيقة بلمعان نور المشاهدة الموجب لملاحظة العبودية في عين تعظيم الربوبية، وسكوت: وهو عند غلبة الحقيقة ونفي شواهد الخليقة، وقد وقعت هذه كلها من أنبيائه عليهم السلام في أحوال مختلفة: هذا إبراهيم عليه السلام سأل لسان صدق في الآخرين، وغيره من مصالح الدين والدنيا، وعرّض في قوله: "الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ" [الشعراء:78] إلى قوله: "وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" [الشعراء:82]، وقال عندما زُجَّ به في المنجنيق: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فلم يسأل ولم يُعرِّض، اكتفاء بعلمه تعالى، وذلك عند تعذر الأسباب، وذهاب شواهد الاكتساب، وإنما يكون السكوت أدباً بشرط ذكره المؤلف "صاحب الحكم" إذ قال: اعتماداً على قسمته، واشتغالاً بذكره عن مسألته"[78]

وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى:

"لأن الغالب على العارفين وأهل الفناء السكوتُ والسكونُ تحت مجاري الأقدار، فصدور الطلب منهم قليل، لأن العارف فانٍ عن نفسه، غائبٍ عن حِسِّه، ليس له عن نفسه أخبار، ولا مع غير الله قرار، فلا يُتصوَّر منه سؤال، ولا فوات مأمول "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين"[79 80]

المطلب الثالث: لا توجه قلبك إلا إليه

يعبر عن هذا المقام ابن عطاء الله رحمه الله بقوله:

"طلبك منه اتهام له، وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك منه"

وقال ابن عجيبة رحمه الله موضحاً:

"وأما طلبك له فهو دليل على غيبتك عنه بوجود نفسك، فلو حضرَ قلبُك وغبتَ عن نفسك ووهمك لما وجدت غيره .

أَراكَ تسألُ عن نجدٍ وأنتَ بها وعن تهامةَ هذا فِعْلُ مُتّهِمِ

وقال ابن المرحّل السني :

ومِنْ عَجَبٍ أنِّي أَحِنُّ إليهم وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهمْ بسوادها ويشكو النَّوى قلبي وهم بين أضلعي

وأما طلبك لغيره: أي لمعرفة غيره فَلِقِلّة حَيائِكَ منه، وعَدَمِ أُنْسِكَ به، أما وجهُ قِلةِ حَيائِكَ منه فلأنه يناديك إلى الحضرة وأنت تفر منه إلى الغفلة، ومثال ذلك كمن كان في حضرة المِلك، والملكُ مُقبلٌ عليه ثم يعجل هو يريد الخروج منها، ويلتفتُ إلى غيره، فهذا يدل على قلة حيائه وعدم اعتنائه بالمِلك، فهو حَقيقٌ بأن يُطرد من الباب إلى سياسة الدوابّ...وأما وجه عدم أُنْسِكَ به فلأنك لو أَنِسْتَ به لاستَوْحَشْتَ من خَلْقِه، فلا يُتَصَوَّرُ منك طلبُ معرفتهم وأنت تَفِرُّ منهم ، فإذا آنَسَكَ به أَوْحَشَكَ من خَلْقِه، وبالعكس، والاستئناس بالناس من علامة الإفلاس. وأما طَلَبُكَ من غيره فلوجود بُعْدِكَ عنه، إذ لو تَحَقَّقْتَ بِقُرْبِه منك وهو كريم، ما احتَجْتَ إلى سؤال غيره وهو لئيم"[81]

المبحث الخامس: مفهوم الإجابة

لا تنحصر إجابة الدعاء فقط في تحقيق الهدف المباشر الذي يرنو إليه الداعي، بل إن الله عز وجل هو العليم الخبير بما يُصلِح عبده، وما يَصلُح له، ومتى يجيبه، وكيف يجيبه؟ فإجابة الدعاء يجب أن ينتبه العبد إلى ارتباطها بصفات الله عز وجل: كالعلم، والقدرة، والإرادة، واللطف، والرحمة، فالماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة لله عز وجل سواء، وهو يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، ويعلم سبحانه النتائج والمآلات، والأسباب، والمقدمات، ولذلك فواجب العبد كما مر مراراً هو الدعاء، ويُفوّض ما تبقى لله عز وجل كما قال الله جلَّ وعلا معلماً لنا: "فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" [غافر:44]

المطلب الأول: الإجابة والمشيئة

مما ينبغي أن يُعلمَ أن الدعاء مُجابٌ إن شاء الله تعالى، لكن لا يُفهم من الآيات أن الإجابةَ تكون بحسب ما يريد الداعي، وفي الوقت الذي يريد، لأن إجابة الدعاء مرتبطة بمشيئة الله عز وجل، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يُعجِّلَ له دعوتَه، وإما أن يَدخرَها له في الآخرة، وإمَّا أَنْ يَصْرِفَ عنه من السوء مثلها". قالوا: إذن نكثر ! قال: الله أكثر".[82]

فقد تكون الإجابة في الدنيا بنفس الغرض المطلوب، وقد تكون بغيره، أو دفعاً أو رفعاً للبلاء، أو في الآخرة ادخاراً لثواب الله عز وجل، فالإجابة تتنوع: فتارة يقع المطلوب على الفور، وأخرى يتأخر لحكمة، وتارة الإجابة بغير المطلوب؛ حيث يكون في المطلوب مصلحة ناجزة، أو يكون في غير المطلوب الذي وقع ما هو أصلح من المطلوب المدعو به.

ومن واجبه أن يحاسِبَ نفسَه دائماً، ويجدد التوبة دائماً، ويتوجه إلى ربه بالدعاء على سبيل العبودية المحضة، ويُسلِّمَ أمر الإجابة إليه، فهو سبحانه أدرى بما يصلحه في الدنيا والآخرة، وأن يدعو الله عز وجل وهو موقنٌ بالإجابة،كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة" [83]

عليه أن يدعو، والباقي يتكفل به خالقه سبحانه وتعالى، وهو ما عبر عنه أمير المؤمنين سيدنا عمر –رضي الله عنه– حين قال:

"إني لا أحمل هم الإجابة، ولكني أحمل هم الدعاء. [84]

فهذه صفة العبد، وليس من حقه أن يزاحمَ ربَّه سبحانه في تدبيره، واختياره، وقدرته وكبريائه.

المطلب الثاني: لا تيأس ولا تعجل

وهو ما يعبر عنه ابن عطاء الله رحمه الله بقوله:

"لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح بالدعاء موجباً ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك، لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد".[85]

ويشرح لنا ذلك ابن عجيبة رحمه الله بقوله:

"اعلم أن من أسمائه تعالى القيوم، وهو مبالغة في القيام، فقد قام تعالى بأمر خلقه من عرشه إلى فرشه، وعَيَّن لكل مظهر وقتاً محدوداً، وأجلا معلوماً، ولكل واحد شكلاً معلوماً، ورزقاً مقسوماً قال تعالى: "قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ" [الأعراف:14] فإذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة فارجع إلى وعد الله، واقنع بعلم الله، ولا تحرص ففي الحرص تعبٌ ومَذَلَّةٌ ... وإن غلبَ عليك واردُ الطلب وطلبتَ شيئاً ثم تأخَّرَ عنك وقتُ العطاء فيه؛ فلا تتهم الله في وعده حيث قال: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" [غافر:60] ولا تيأس من نواله ورِفْدِه، فإن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا والآخرة، وقد يمنعك لطفاً بك؛ لكون ذلك المطلب لا يليق بك. وفي الحديث "ما من داع إلا وهو بين إحدى ثلاث خصال: إما أن تُعجَّلَ له طِلْبَتُه، وإما أن يُدَّخَر له ثوابها، وإما أن يُصرَف عنه من السوء مثلها"[86] [87]

ويزداد الأمر وضوحًا بشرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى حين يقول:

"وذلك كله مُضمَّن في قوله تعالى: "ادعوني استجب لكم" [غافر:60] فضمن الإجابة بوعده، وجعلها مطلقة إذ لم يقل بعين ما طلبتم، ولا متى شئتم، ولا كيف شئتم وأكد ذلك رسول الله ﷺ بقوله: "ما من داع إلا وهو بين إحدى ثلاث: إما أن تعجل له طلبته، أو يؤخر له ثوابها، أو يصرف عنه من السوء مثلها". وقال عليه الصلاة والسلام: "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لي"[88] [89]

ثم يضيف الشيخ رحمه الله:

"وإنما جعل الإجابة فيما اختاره تعالى عيناً ووقتاً لوجوه ثلاثة: أحدها: رفقاً بعبده وعناية، لأنه كريم رحيم عليم، والكريم إذا سأله من يَعزُّ عليه أعطاه أفضلَ ما علمَه له، والعبد جاهل بالصلاح والأصلح؛ فقد يحبُّ الشيءَ وهو شرٌّ له، ويكره الشيء وهو خيرٌ له فافهم. الثاني: لأن ذلك أبقى لأحكام العبودية في نظر العبد، وأقوى في ظهور سطوة الربوبية، إذ لو كانت الإجابة بالدعاء على

وفق المراد ضمناً لكان نفس دعائه تحكماً على الله وذلك باطل فافهم. الثالث: لأن الدعاء عبودية سرها إظهار الفاقة، ولو كانت الإجابة بعين المراد حتماً لما صحت فاقة في عين الطلب، فبطل سر التكليف به، ومعنى الاضطرار المطلوب فيه، فافهم"[90]

المطلب الثالث: عالج الشك باليقين

لا يخلو الإنسان العاقل من الشكوك لأن هذا أحد مقتضيات التكليف، إلا أن هذا الشك يجب أن يُعالجَ دائماً بالاعتصام بالإيمان والدعاء وقراءة القرآن والذكر واللجوء إلى الله عز وجل، وقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: "وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟" قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: "ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ" [91]

ولذلك يقول ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: "لا يُشكِّكَنَّك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه، لئلا يكون ذلك قدحاً في بصيرتك، وإخماداً لنور سريرتك". قال ابن عجيبة –رحمه الله– شارحاً:

"إذا وعدك الحق تعالى بشيء على لسان الوحي أو الإلهام من نبي أو ولي أو بتجلٍّ قوي فلا تشكَّ أيها المريد في ذلك الوعد إن كنت صِدِّيقاً، فإن لم يتعين زمنه فالأمر واسع، وقد يَطُولُ، وقد يَقْصُرُ، فلا تشكَّ في وقوعه، وإن طال زمنُه، وقد كان دعاء سيدنا موسى وهارون على فرعون بقوله: "رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ" [يونس:88] أربعون سنة على ما قيل، وإن تعين زمنه ولم يقع ذلك عند حلوله فلا تشكَّ في صدق ذلك الوعد، فقد يكون ذلك مترتباً على أسباب وشروط غيبية أخفاها الله تعالى عن ذلك النبي أو الولي؛ لتظهر قهرية عزته وحكمته، وتأمل قضية يونس عليه السلام حيث أخبر قومَه بالعذاب لما أُخبر به وفَرَّ عنهم، وكان ذلك متوقفاً على عدم إسلامهم، فلما أسلموا تأخر عنهم العذاب، وكذلك قضية سيدنا نوح عليه السلام، حيث قال: "رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ" [هود:45] فوقف مع ظاهر العموم، في قوله تعالى: "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" [هود:46] ونحن إنما وعدناك بنجاة الصالح من أهلك، وإن فهمتَ العمومَ فَعِلْمُنا مُتَّسِع، ولهذا السرِّ الخفيِّ كان الرسل عليهم الصلاة والسلام وأكابر الصديقين لا يقفون مع ظاهر الوعد، فلا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، بل ينظرون لسعة علمه تعالى، ونفوذ قهره، ومنه قول سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام: "وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" [الأنعام:80] وقول سيدنا شعيب عليه السلام: "مَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا" أي ملة الكفر "إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" [الأعراف:89] وقضية نبينا محمد ﷺ يوم بدر حيث دعا حتى سقط رداؤه وقال: "اللهم عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد بعد اليوم" فقال له الصديق: حسبك يا رسول الله، فإن الله منجز لك ما وعدك،[92] فنظرُ المصطفى أوسع لعدم وقوفه مع ظاهر الوعد، ووقفَ الصديق مع الظاهر، فكلٌّ على صواب، والنبي ﷺ أوسع نظراً وأكمل عقلاً. وأما قضية الحديبية فلم يتعين فيها زمن الوعد لقوله تعالى: "فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا" [الفتح:27]

وقد قال –عليه الصلاة والسلام– لعمر حين قال له ألم تخبرنا أن ندخل مكة فقال له: أقلت لك هذا العام ؟ فقال لا، فقال: "إنك داخلها ومطوف بها"[93] [94]

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى:

"فقد وعد الحق سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالنصر في أحد والأحزاب ودخول مكة، وستر شرط ذلك وهو الذلة التي اقتضت حكمته ترتب النصر عليها دائماً، حتى أظهرها في معرض المِنَّة والتنبيه إذ قال عز من قائل: "وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ" [آل عمران:123] وقال عز وعلا: "وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا" [التوبة:25] وقال عليه الصلاة والسلام لابن عباس في وصيته: "واعلم أن النصر مع الذل"[95] وهو سر الاضطرار المشروط في الإجابة بعين المقصد إذ قال: "وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ" [النمل:62] فافهم"[96]

المطلب الرابع: العطاءات المعجلة التي لا يشعر بها العبد

عطاء الله دائم ومستمر ولا ينقطع، تخيل لو قطع الله عز وجل عنك النَفَس، أو الماء أو الهواء أو الغذاء أو العافية، فإنك ستبذل كل ما تملك من أجل شهقة هواء، أو جرعة ماء، ولو منعك الخلاء ستبذل الغالي والرخيص وملك الدنيا كله فقط لتقضي حاجتك.[97] لكن العبد لا يشعر بعطاء الله عز وجل له إلا إذا فقده، عندئذ يبدأ بالجؤار والتضرع والعويل، فإذا ما تحقق له مراده نسي ما كان يدعو إليه، كما قال الله عز وجل "وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [يونس:12] وهذا معنى قول ابن عطاء الله رحمه الله: "جل ربنا أن يعامله العبدُ نقداً، فيجازيه نسيئةً ". وهو ما يوضحه ابن عجيبة رحمه الله بقوله:

"النقد ما كان معجلاً، والنسيئة ما كان مؤخراً، ومن شأن الكريم إذا اشترى أن ينجز نقده، ويزيد رفده، وقد اشترى الحق تعالى منا أنفسنا وأموالنا، فعوضنا بها الجنة، فمن باع نفسه وماله ونقدهما وسلَّمهما إليه، عوضه جنة المعارف عاجلاً، وزاده جنة الزخارف آجلاً، مع ما يتحفه به من أنواع النعيم، ودوام الشهود والنظر إلى وجهه الكريم... والذي عجل له سبحانه وتعالى في هذه الدار أمور : **منها** : ما يدفع عنه من المضار، ويجلب له من المنافع والمسارّ لقوله تعالى: "وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" [الأعراف:196] وقال تعالى: "وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ" [الطلاق:3] وقال تعالى: "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [يونس:62] وقد يتعدى ذلك إلى عقبه كما تقدم. **ومنها**: ما يُشرق عليه من الأنوار، ويُكشف لقلبه من الأسرار، وهي أنوار التوجه وأنوار المواجهة، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا" [الأنفال:29] وهو نور يُفرّق بين الحق والباطل، قال تعالى: "وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ" [البقرة:282] وقال تعالى: "اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" [البقرة:257] يخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة المعصية إلى نور الطاعة، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى، ومن ظلمة الكون إلى نور المُكوِّن. **ومنها** : التوفيق والهداية لها قبل عملها، حتى جعلك أهلا للوقوف بين يديه، وهو الذي أبانه

بقوله: "كفى من جزائه إياك على الطاعة ان رضيك لها أهلا"؛ لأن الملِك لا يدعو لخدمته إلا من يريد أن يُكرمه، ولا يُدخل لحضرته إلا من يريد أن يُعظمه، ولا يُنسَبُ له إلا أهل الفضل والتكرمة: "وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا" [النور:21][98] **ومنها**: ما يرد على قلبه حال عملها من المؤانسة به والقرب له، وهو الذي ذكره بقوله: "كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته"[99]

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى:

"يعني حال التلبس بها من حلاوة المناجاة، ولذات المصافاة، وسنيّ الحالات، حتى قال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة، ولا إلى شيء منها، وهي طاعة الله عز وجل، وقال غيره : ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التعلق في قلوبهم بالليل من لذَّات المناجاة. وفي الحديث أن رجلين من الصحابة كانا في حرس المسلمين من الكفار، فقام أحدهما يصلي، ونام الآخر، فكبّد كافرٌ قوسَه وضرب المصلّي، فأصابه السهمُ فلم يَخْفِل به، ومضى في صلاته، فعاوده بثان كذلك، ثم ثالث، فلما رأى ذلك أيقظ صاحبه وقال: لولا أني خفت على المسلمين ما أيقظتك، ولكان ما أنا فيه شاغلا لي عما أصابني.[100] وقُطعت رِجلُ عروة بن الزبير –رضي الله عنه– لأكلة كانت بها وهو في صلاته، فلم يحس بها"[101] [102]

المطلب الخامس: دعاء الحال أفضل من دعاء المقال:

قال الإمام القشيري رحمه الله :

"قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى: "أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الحال"[103] أي أن يكون حاضر القلب، وأن لا يكون ساهياً، فقد رُويَ عن النبي ﷺ: "إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عبد من قلبٍ لاه"[104] ومن شرائطه أن يكون مطعمه حلالاً، فلقد قال ﷺ لسعد: "أَطِبْ مَطْعَمَكَ تُسْتَجَبْ دعوتُك [105] وقد قيل: "الدعاء مفتاح الحاجة، وأسنانها لُقَمُ الحلال" وكان يحيى بن معاذ يقول: كيف أدعوك وأنا عاص؟! وكيف لا أدعوك وأنت كريم؟!، سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ظهر بيعقوب بن الليث علةٌ أعيت الأطباء، فقالوا له: في ولايتك رجل صالح يسمى سهل بن عبد الله التستري لو دعا لك لعل الله سبحانه يستجيب له، فاستحضر سهلاً، وقال: ادع الله عز وجل لي، فقال سهل: كيف يستجاب دعائي فيك وفي محبسك مظلومون؟! فأطلقَ كل من كان في محبسه، فقال سهل: اللهم كما أريته ذلَّ المعصية، فأره عزَّ الطاعة، وفرِّج عنه، فعوفي، فعرض على سهل مالاً فأبى أن يقبله، فقيل له: لو قبلتَه ودفعته إلى الفقراء، فنظر إلى الحصباء في الصحراء فإذا هي جواهر، فقال لأصحابه: من يُعطى مثل هذا يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث؟" وقيل: كان صالح المرّي يقول كثيراً: من أدمن قرعَ بابٍ يوشك أن يُفتح له. فقالت له رابعة: إلى متى تقول هذا؟ متى أُغلق هذا الباب حتى يُستفتَح ؟! فقال صالح: شيخ جهل، وامرأة علمت"[106]

الخاتمة

وهكذا نجد أن الصوفية يسلكون طريقاً مريحاً للعقل والقلب في تعاملهم مع ربهم عز وجل وينعكس ذلك راحة وطمأنينة في تعاملهم مع الكون والحياة، ويتجلى ذلك في قضية الدعاء التي أثار المشككون حولها غباراً من الشبهات والاعتراضات التي تتصل بالدعاء بشكل خاص وبالإيمان بشكل عام . ويمكن إيجاز الموقف الصوفي من الدعاء بما يلي:

أولًا – إن القضية المركزية في الفكر الصوفي هي معرفة الهوية الحقيقية للإنسان وعلاقتها بالله جل وعلا ومن ثم علاقتها بالوجود، والمعرفة المطلوبة ليست مجرد معرفة نظرية عقلية، بل معرفة قائمة على الانفعال، والتحقق والتجربة والمعايشة، وما يمكن أن نسميه حقيقة الإيمان، التي يُوصَل إليها عند القوم ضمن مراتب الترقي من علم اليقين إلى حق اليقين إلى عين اليقين .

ثانيًا – إن الدعاء وظيفة من وظائف العبودية، والإنسان يمارسه بمحض وصفه العبودي، وليس من حقه طبقاً لهويته هذه أن يعترض لا قولاً ولا فعلاً ولا حالاً، ولا حتى في خطرات النفس، بل عليه أن يقاومها ويتصدى لها، لأن الله عز وجل علاَّم الغيوب، وهو مالك الملك، وبيده مقاليد السماوات والأرض. فالدعاء تعبيرٌ محضٌ لإظهار الإنسان عبوديتَه واضطرارَه لربه جل وعلا، وهو عبادةٌ يثاب الإنسان عليها وهو مجابٌ قطعاً، إما في الدنيا وإما في الآخرة، فالإجابة مضمونة بشرط أن لا يَعجلَ الإنسانُ أو ييأس، وعليه أن يعالج شكوكَه بالإيمان واليقين والعبادة والذكر وليس بالفكر فقط.

ثالثًا– والمنع والعطاء عند الله عز وجل خاضع للحكمة الإلهية، فقد يكون المنعُ عطاءً، وقد يكون العطاءُ منعاً، وهو ما يستفاد من قوله تعالى: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون"، ولذا فأساس الراحة للعقل والقلب في المنظور الصوفي هو الفهم عن الله جل وعلا، فمتى فهم المكلَّف معاني العطاء والمنع اطمان قلبه وارتاح عقله، وإنما يتألم لعدم فهمه عن الله عز وجل، كما عليه أن يلاحظ عطاءات الباري عزَّ وجلَّ الكثيرةَ المغدَقَة عليه، والتي لا يتذكرها إلا في حال فقدانها فقط. وعلى المكلَّف أن يعلم أنه متى ما أَطلقَ اللهُ عز وجل لسانَه بالدعاء فليعلم أنه يريد أن يعطيه ويكرمه، ولذلك أفضل ما تطلبه من الله عز وجل ما هو طالبه منك من العبادة والتقوى.

رابعًا – إن العلاقة مع الله عز وجل ليست محصورة في هذه الحياة الدنيا حتى يعترض العبد على عدم إجابة دعائه أو على ما يصيبه من بلاء، لأن الدنيا مرحلة من مراحل الحياة الثلاث: الدنيا والبرزخ والآخرة، والدنيا هي أقصرها، وهي ليست مخصصة للجزاء بل للامتحان، والمنطلق الأساسي في فهم ذلك هو التكليف المُضمَّن في قوله تعالى: "إنا عرضنا الأمانة..." وهذه الأمانة في النظر الصوفي إذا تحملها الإنسان لوحده فهي ثقيلة وشاقة، ولكنه باستعانته بالله عز وجل، والتجائه إليه تصبح سهلة ويسيرة.

خامسًا – وللدعاء آدابٌ معروفةٌ فصَّلها الإمام النووي –رحمه الله تعالى– في كتابه "الأذكار" لا بد أن يلتزم بها الداعي، إلا أن الصوفية يركزون على الآداب الجوَّانية القلبية مثل الرضا والتسليم والتفويض المطلق لله عز وجل، والدعاء بالحضور والاضطرار والافتقار، وأن يكون الدعاء عبودية لله عز وجل، وليس فقط لتحصيل الأغراض والمصالح، ومنطلق ذلك الثقة المطلقة بالله عز وجل، لأن الله كريم والكريم لا تتخطاه الآمال. كما أن دعاء الحال أفضل من دعاء

المقال، ومعنى ذلك أن يكون القلب حاضراً أثناء الدعاء ومتبتلاً وخاشعاً، فالباري لا يستجيب الدعاء من قلب لاهٍ.

سادسًا – أما أيهما أفضل السكوت أم الدعاء؟ فالصوفية يرون أن هذا راجع لحال الداعي، فأحياناً يكون الطلب أفضل، وأحياناً يكون السكوت أفضل، والراجح أن الدعاء أفضل مطلقاً وعليه الجمهور. والله أعلم.

وأوصي إخواني الباحثين بمزيد من العناية بالتراث الصوفي ففيه من الكنوز التربوية والأخلاقية العملية الشيء الكثير الذي نحن بحاجة ماسة إليه، بل العالم والإنسانية جمعاء اليوم بأمس الحاجة إليه في هذا العصر الذي طغت فيه الجوانب المادية، والأفكار الشكية والعدمية، ونحن بحاجة إلى مواجهة ذلك بتعزيز الجانب الأخلاقي في الإنسان، وتنمية المطالب الروحية، ومعالجة الأمراض النفسية والقلبية، وليس من سبيل إلى ذلك أفضل من الإيمان، وليس أولى من ذلك من الإحسان الذي يكمن في عمق تراثنا وفكرنا الصوفي الجليل.

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

الهوامش (References)

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، رقم 4205

Al Bukhārī, Muḥammad bin Ismā'īl, *Ṣaḥīḥ al Bukhārī*, (Dār Tawq al Najah, 1st Edition, 1422), Ḥadith # 4205

[2] البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، الدار السلفية ببومباي، الهند، ط1، 2003م، رقم 1859

Al Bayhaqī, Aḥmad bin Al Ḥussayn, *Shu'ab al Ī'mān*, (India: Dār al Salafiyyah, 1st Edition, 2003), Ḥadith # 1859

[3] البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، 1994م، رقم 6318

Al Bayhaqī, Aḥmad bin Al Ḥussayn, *Al Sunan Al Kubra*, (Makkah: Maktabah Dār al Bāz, 1994), Ḥadīth # 6318

[4] عباس عبد النور، محنتي مع القرآن، مصر،طبعة تجريبية أولى دمنهور، ص: 10

'Abbas 'Abd Al Nūr, *Miḥnatī Ma'a al Qur'an*,(Egypt:1st Edition),p:10

[5] ايضاً، ص: 11

Ibid., p:11

[6] ايضاً، ص: 25

Ibid., p:25

[7] عبد الله القصيمي، يكذبون لكي يروا الإله جميلًا، دار الكاتب العربي، ط: 2، 2001م، ص :40

'Abdullah Al Qaṣīmī, *Yakdhibūn Likay Yaraw Al 'Ilāh Jamilan*, (Dār al Kātib al 'Arabī, (2nd Edition, 2001), p:40

[8] حسن حنفي، من النقل إلى العقل. القاهرة،الهيئة المصرية للكتاب، 2014م، 2 : 460

Ḥassan Ḥanafī, *Min al Naql Ilā al 'Aqal*, (Cairo: Al Hay'ah al Miṣriyyah lil Kitāb, 2014), 2:460

[9] حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، 2020م، 3 : 33

Ḥassan Ḥanafī, *Min al Aqīdah Iā al Thawrah*, (USA: Mo'assasah Handāwī, 2020), 3:33

[10] حسن حنفي، من النقل إلى العقل، 2 : 466

Ḥassan Ḥanafī, *Min al Naql Ilā al 'Aql*, 2:466

[11] ايضاً، 2 : 469

Ibid., 2:469

[12] ايضاً، 2 : 473

Ibid., 2:473

[13] الحسنفية مصطلح منحوت من حسن حنفي

[14] الإمام الغزالي، المنقذ من الضلال، بيروت: دار المنهاج، ط:1، 2015 م، ص: 68 – 69

Al Ghazālī, *Al Manqadh Min al Ḍalāl*, (Beirūt: Dār al Minhāj, 1st Edition, 2015), p:68,69

[15] الحاكم، محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1990

Al Ḥakim, Muḥammad bin 'Abdullah, *Al Mustadrak 'ala al Ṣaḥīḥayn*, (Beirūt: Dār al Kutub Al 'Ilmiyyah, 1st Edition, 1990)

[16] الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، القاهرة، مكتبة البابي الحلبي ، ط:2، 1975م، رقم 3371

Al Tirmidhī, Muḥammad bin 'Esa, *Sunan Al Tirmidhī*, (Cairo: Maktabah al Babī al Ḥalabī, 2nd Edition, 1975), Ḥadith # 3371

[17] سنن ابن ماجه، رقم 3828، وسنن أبي داود، رقم 1479، سنن الترمذي، رقم 2969

Ibn Mājah, *Sunan Ibn Mājah,* Ḥadith # 3828. Abū Dāw'ūd, *Sunan Abī Dāw'ūd*, Ḥadith # 1479. Al Tirmidhī, *Sunan Al Tirmidhī,* Ḥadith # 2696

[18] عبد الكريم تتان و محمد أديب الكيلاني، عون المريد لشرح جوهرة التوحيد في عقيدة أهل السنة والجماعة، 2 : 951،952

'Abd Al Karīm Tatān & Muḥammad 'Adīb Al Kaylānī, *'Awn al Murīd li Sharḥ Jawhirah al Tawḥīd fi 'Aqīdah 'Ahl al Sunnah wal Jamā'ah*, 2:951-952

[19] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله ، ص: 165 – 166

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn 'Attaullah*, p: 165-166

[20] النووي، يحيى بن شرف، رياض الصالحين، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط1، 1991م، ص: 92

Al Nawawī, Yaḥya bin Sharf, *Riyāḍ al Ṣālihīn*, (Beirūt: Dār al Fikr al Mu'āṣir, 1st Edition, 1991), p:92

[21] أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، القاهرة، دار المعارف، ص: 303 – 304

Al Ḥasnī, Aḥmad bin Muḥammad bin 'Ajībah, *'Īqāẓ al Himam fī Sharḥ al Ḥikam*, (Cairo: Dār al Ma'ārif), p:303,304

[22] ابن عطاء الله السكندري،لطائف المنن، اعتنى به الدكتور عبد الحليم محمود، القاهرة، دار المعارف، 1999م، ص: 169

Al Sikandarī, Ibn 'Attaullah, *Latā'if al Minan*, (Cairo: Dār al Ma'ārif, 1999), p:169

[23] ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن ، ص: 128 – 129

Ibid., p: 128,129

[24] صحيح البخاري ، رقم 2790

Saḥīḥ al Bukharī, Ḥadith # 2790

[25] إيقاظ الهمم، ص: 629

'Īqāẓ al Himam, p: 629

[26] ايضاً، ص: 473

Ibid., p:473

[27] شعب الإيمان للبيهقي، رقم 1108

Al Bayhaqī, *Shu'ab Al 'Īmān*, Ḥadith # 1108

[28]صحيح مسلم، رقم 2999

Muslim bin Al Ḥajjāj, *Al Jāmi' Al Ṣaḥīḥ*, Ḥadith # 2999

[29] ايضاً، رقم 1055

Ibid., Ḥadith # 1055

[30] ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، صيد الخاطر، دمشق،دار القلم، ط:2، 2009م، ص 328

Ibn al Jawzī, 'Abd al Raḥmān bin 'Alī, *Ṣayd al Khāṭir*, (Damascuss: Dār al Qalam, 2nd Edition, 2009), p: 328

[31]ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 212

Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam,* p:212

[32] ايضاً، ص: 212

Ibid.,p:212

[33] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 214

Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam,* p:214

[34] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 129– 130. ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 212 – 214

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn 'Attaullah*, p:129.130. Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam,* p:212.214

[35]ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 235

Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam,* p:235

[36]ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 235 –236

Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam,* p:235.236

[37] ايضاً، ص: 256

Ibid., p:256

[38] ايضاً، ص: 212 – 214

Ibid., p:212-214

[39] البيهقي، شعب الإيمان، رقم 973

Al Bayhaqī, *Shu'ab Al 'Īmān*, Ḥadith # 973

[40]ايضاً، رقم 996

Ibid., Ḥadith # 996

[41]الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله ، ص: 129

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn 'Attaullah*, p:129

[42] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 225

Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam,* p:225

[43]الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 133

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn 'Attaullah*, p:133

[44]ايضاً

Ibid.

[45] ابن حبان، محمد بن حبان، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1988م، 2: 406

Ibn Ḥabban, Muḥammad bin Ḥabban, *Al 'Iḥsan fī Taqrīb Saḥīḥ ibn Ḥabban*, (Beirūt: Mu'ssasah Al Risālah, 1988), 2:406

[46] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 234

Ibn ʻAjibah, *ʼĪqāẓ al Himam*, p:234

[47]ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 341

Ibn ʻAjibah, *ʼĪqāẓ al Himam*, p:341

[48]المراد بالفقير هنا : الولي

[49]ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 342

Ibn ʻAjibah, *ʼĪqāẓ al Himam*, p:342

[50]الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 181

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ʻAttaullah*, p:181

[51] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 249

Ibn ʻAjibah, *ʼĪqāẓ al Himam*, p:249

[52] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 143 . بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، ص: 33

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ʻAttaullah*, p:143. *Baḥr Al Fawa'id Al Mashhur bi Ma'ānī Al Akhbār*, p:33

[53]ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 249–250. الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 143

Ibn ʻAjibah, *ʼĪqāẓ al Himam*, p:249-250. Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ʻAttaullah*, p:143

[54]سنن أبي داود، رقم 1522

Abū Dāw'ūd, *Sunan Abī Dāw'ūd*, Ḥadith # 1522

[55] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 123

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ʻAttaullah*, p:123

[56] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 195

Ibn ʻAjibah, *ʼĪqāẓ al Himam*, p:195

[57] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 249–250. الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 143

Ibn ʻAjibah, *ʻĪqāẓ al Himam*, p:249.250. Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ʻAttaullah*, p:143

[58] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص:303

Ibn ʻAjibah, *ʻĪqāẓ al Himam*, p:303

[59] سنن الترمذي، ،تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2)

Al Tirmidhī, *Sunan Al Tirmidhī*, Vol. :1,2

[60] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 165

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ʻAttaullah*, p:165

[61] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 375–376. والشيخ زروق، ص: 55

Ibn ʻAjibah, *ʻĪqāẓ al Himam*, p:375,376. Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ʻAttaullah*, p:55

[62] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 201

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ʻAttaullah*, p:201

[63] الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، القاهرة، دار الحرمين، 7: 104

Al Ṭabrānī, Suliman bin Aḥmad, *Al Mu'jam Al Awsaṭ*, (Cairo: Dār Al Ḥaramayn,), 7:104

[64] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 100 – 101

Ibn ʻAjibah, *ʻĪqāẓ al Himam*, p: 100-101

[65]الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 57

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ʻAttaullah*, p:57

[66] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص:57. أحمد بن عطاء الله السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، تحقيق: محمد عبد الرحمن الشاغول، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، 2007 م ط1، ص: 135

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ‘Attaullah*, p:57. Aḥmad bin ‘Attaullah al Sikandarī, *Al Tanvir fī ‘Isqāṭ al Tadbīr, (*Cairo: Al Maktabah Al Azharaiyah lil Turāth, 1st Edition, 2007), p:135

[67]سنن الترمذي، 5: 456

Al Tirmidhī, *Sunan Al Tirmidhī,* 5:456

[68] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 121

Ibn ‘Ajibah, *‘Īqāẓ al Himam*, p:121

[69]الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 77 – 78

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ‘Attaullah*, p:77-78

[70] القشيري، عبد الكريم بن هوازن، الرسالة القشيرية، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001م، ص: 301

Al Qushayrī, ‘Abdul Karīm bin Hawāzin, *Al Risalah Al Qushayriyah*, (Beirut: Dār al Kutub al ‘Ilmiyah, 2001), p:301

[71] الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط2، 10: 326. البيهقي، دلائل النبوة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1988م، 6: 160

Al Ṭabrānī, Sulaymān bin Aḥmad, *Al Mu’jam Al Kabīr*, (Cairo: Maktabah Ibn Tamaiyah, 2nd Edition), 10:326. Al Bayhaqī, *Dalā’il al Nabuwwah*, (Beirūt: Dār Al Kutub Al ‘Ilmiyyah, 1st Edition, 1988), 6:160

[72] عبد الكريم تتان، محمد أديب الكيلاني، عون المريد لشرح جوهرة التوحيد في عقيدة اهل السنة والجماعة، دمشق ، دار البشائر، ط2، 1999م، 2: 952

‘Abd al Karīm Tattān, Muḥammad Adīb Al Kaylānī, *‘Awn al Murīd li Sharḥ al Tawḥīd fī ‘Aqīdah Ahl al Sunnah wal Jamā’ah*, (Damascus: Dār al Bashā’ir, 2nd Edition, 1999), 2:952

[73]البيهقي ،شعب الإيمان، 2: 93

Al Bayhaqī, *Shu’ab al ‘Īmān*, 2:93

[74] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 388. الرسالة القشيرية، ص: 297

Ibn ‘Ajibah, *‘Īqāẓ al Himam*, p:388. *Al Risalah Al Qushayriyyah*, p:297

[75]الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 208

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ‘Attaullah,* p:208

[76]سنن ابن ماجه، رقم 3828. وسنن أبي داود، رقم 1479. سنن الترمذي، رقم الحديث:2969

Ibn Mājah, *Sunan Ibn Mājah*, Ḥadith # 3828. Abū Dāw’ūd, *Sunan Abī Dāw’ūd*, Ḥadith # 1479. Al Tirmidhī, *Sunan Al Tirmidhī*, Ḥadīth # 2696

[77]عبد الكريم تتان ومحمد أديب الكيلاني، عون المريد لشرح جوهرة التوحيد في عقيدة أهل السنة والجماعة، 2 :952 – 953

‘Abd al Karīm Tattān, Muḥammad Adīb Al Kaylānī, *‘Awn al Murīd li Sharḥ al Tawḥid fī ‘Aqīdah Ahl al Sunnah wal Jamā’ah*, p:2:952-953

[78]الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 207

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn ‘Attaullah*, p:207

[79]سبق تخريج الحديث قبل قليل

[80] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 387

Ibn ‘Ajibah, *‘Īqāẓ al Himam*, p:387

[81] ايضاً، ص: 94-96

Ibid., p:94-96

[82] المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم الحديث:1816،قال الحاكم رحمه الله : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ إِلَّا أَنَّ الشَّيْخَيْنِ لَمْ يُخَرِّجَاهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ الرِّفَاعِيِّ "

Al Ḥakim, *Al Mustadrak 'Ala Ṣaḥiḥayn,* Ḥadith # 1816

[83] سنن الترمذي، رقم 3479

Al Tirmidhī, *Sunan Al Tirmidhī*, Ḥadith # 3479

[84] ذكره ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم، ت: ناصر بن عبد الكريم، مكتبة الرشد، الرياض، ط3، 1993م، 2: 713

Ibn Taymiyah, *Iqtiḍā' al Ṣirāṭ al Mustaqīm*, (Riyad: Maktabah al Rushd), 3rd Edition, 1993), 2:713

[85] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص:40. ينظر أيضا: الدكتور البوطي،الحكم العطائية، ص: 101

Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam*, p:40. Dr. Al Buṭi, *Al Ḥukam al 'Aṭā'iyyah*, p:101

[86] المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم 1816

Al Ḥakim, *Al Mustadrak 'Ala Ṣaḥiḥayn,* Ḥadith # 1816

[87] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 40-41

Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam*, p:40-41

[88] صحيح البخاري، رقم 6340

Al Bukhārī, *Ṣaḥīḥ al Bukhārī*, Ḥadith # 6340

[89] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 30

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn 'Attaullah*, p:30

[90] ايضاً، ص: 30 – 31

Ibid., p:30-31

[91] صحيح مسلم، رقم 209

Ṣaḥiḥ Muslim, Ḥadith # 209

[92] ايضاً، رقم 1763

Ibid., Ḥadith # 1763

[93] صحيح البخاري، رقم 2731

Al Bukhārī, *Ṣaḥīḥ al Bukhārī*, Ḥadith # 2731

[94] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 43 -44

Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam*, p:43-44

[95] لم أجد رواية واعلم أن النصر مع الذل والموجود في الروايات المتعددة وان النصر مع الصبر، يُنظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم 6304

Al Ḥakim, *Al Mustadrak 'Ala Ṣaḥiḥayn,* Ḥadith # 6304

[96] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 32

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn 'Attaullah*, p: 32

[97] تُروى قصة في هذا عن هارون الرشيد. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، ط1، 2004م، 1: 216

Al Suyuṭi, *Tarikh Al Khulafa'*, (Maktabah Nazar Mustafa Al Baz, 1st Edition, 2004), 1:216

[98] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص: 229–230. الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 137

Ibn 'Ajibah, *'Īqāẓ al Himam*, p: 229-230. Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn 'Attaullah*, p:137

[99] المراجع السابقة نفسها

Ibid.

[100] سنن أبي داود، رقم 197

Abū Dāw'ūd, *Sunan Abī Dāw'ūd*, Ḥadith#197

[101] الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، ص: 138

Al Sheikh Zarūq, *Ḥukm Ibn 'Attaullah*, p:138

[102] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 2:178

Ḥilyah al 'Awliya' wa Ṭabqāt al Aṣfiya', 2:178

[103] الرسالة القشيرية، ص: 296

Al Risālah al Qushayriyyah, p:296

[104] سنن الترمذي، رقم 3479

Al Tirmidhī, *Sunan Al Tirmidhī*, Ḥadith # 3479

[105] المعجم الأوسط، رقم 6495

Al Mu'jam al Awsaṭ, Ḥadith # 6495

[106]الرسالة القشيرية، ص: 299

Al Risālah al Qushayriyyah, p:299